أشرف العشماوي

البارمان

رواية

أيها الساقي إليك المشتكى.. قد دعوناك وإن لم تسمع



الدار المصرية اللبنانية

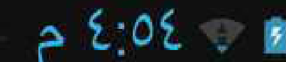
العشماوي، أشرف.
البارمان: رواية / أشرف العشماوي. - ط3.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
248 ص؛ 20 سم.
تدمك: 6 - 558 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ - العنوان. 813
رقم الإيداع: 2013/ 17757

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022









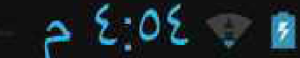
E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

مقولة الغلاف : للحفيد أبي بكر بن زهر ولد بإشبيلية عام (507هـ - 595هـ)

.





«أيها الساقي إليكَ المشتكَى... قد دعوناكَ وإن لم تسمَعِ»

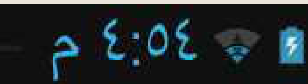
البارمان

أشرف العشماوي

الدار المصرية اللبنانية









إهداء

إلى نفسي الأمارة بالحيرة التي تتمنى
انجلاء الغيوم من على وجه القمر..
وأنا المنذور للعشق..
ألم يكن اليأس أدعى لراحة البال؟!
لا أظن.. فأنا أكتشف يومًا بعد يوم.. أن
عزلتي لن تدوم طويلًا، ما دام قلبي يدق
باستمرار.. سأصبر وأنتظر.

أشرف العشماوي



عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice

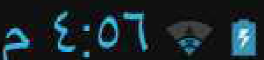
1
أول رئيس منتخب

انسابت موسيقى الفالس الحالمة، تنزلق كقطرات الندى على أوراق خضراء فتزيدها نضرة.. اقترب منها وهو يبسط كفه وابتسامة حانية تغمر وجهه، مدت يدها في جزل كطفلة، فاجتذبها برفق وراح يراقصها في إيقاع هادئ وهي تتأمل ملامحه بعينين واسعتين مندهشتين، توارت النجوم وازداد القمر كسوفا! على طلة محياها، بدت قسمات وجهه مهزوزة، وكأنها تراه من خلف نوافير ماء متصاعدة تتمايل ببطء فتتراقص صورته أمامها.. همست ن **من أنت**؟ أجابها بصوت عميق ن **أنا المستقبل الذي تحلمين به.. أنا مت ن خ سألت النجوم عنه في ليال غاب عنها**



القمر. تهلل وجهها وتنهدت في حبور كأنها تطرد الحزن إلى الأبد من داخلها، ثم أغمضت عينيها مستسلمة له وهي تدور بين ذراعيه في فضاء رحب، يتراقصان على الحافة بين الحقيقة والخيال، يصنعان دوائر لا يراها أحد سواهما، شعرا بأنهما يحلقان ويكادان يرفرفان من السعادة، ابتسمت وهي لا تزال مغمضة العينين والسعادة تكسوها، وصوته الدافئ يغمرها بكلماته.. **لا تتوقفي عن الحلم أبدا؛ ففي أحلامنا نجد كل ما نريد.**

استيقظت مريم والابتسامة لا تزال عالقة بوجهها، فركت عينيها في كسل، وتقلبت في فراشها وكأنها تبحث عن حلمها التي كانت تتمايل فيه فرحا منذ قليل، وقعت عيناها على علبة ألوانها وحاملها الخشبي والأتربة تغطيهما، كانا منزويين في أحد أركان الحجرة، فهزت رأسها في أسى ثم نهضت


وهي تتثاءب لتفتح نافذتها فيغمر الضوء المترقب حجرتها في ثوانٍ، وقفت تتأمل المشهد أمامها.. كان رجل قصير القامة يرتكز بقدميه على قائمين خشبيين طويلين، ويميل بجزعه إلى اليسار وهو يحكم ربط اللافتة القماشية الأخيرة، ويزفر متنهداا بعد أن أنهى مهمة بدت ثقيلة على قلبه، الساعة الآن تقترب من التاسعة صباحاا بحي السيدة زينب، ذلك الحي الشعبي القديم الذي كان وقت السلطان بيبرس البندقداري يسمى اخط السباع»، حتى ردمت القنطرة التي كانت تحمل الاسم والرسم ذاتهما كشعار للخليج الصغير الذي يشق الطريق أمام واجهة المسجد، فاندثرت معها سباع بيبرس ورسومه، كأشياء كثيرة راحت مع الزمن وإن بقيت سماتها في أهل حيها، وكأن كل ما يتعمد أن يمحوه الحكام يترسخ بعمق في وجدان المحكومين..

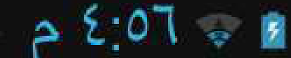




تاهت ملامح شارع زين العابدين، حي التجار الأشهر على الإطلاق، وسط اللافتات المزدانة بصور مرشحين للرئاسة، والمتخمة بشعارات وطنية ملتهبة فوق رؤوس المارة، حتى كلَّت رؤوسهم من التطلع إليها، فانصرفوا إلى حيث ألصقت صور أخرى كبيرة ملونة على الجدران، أكبرها كانت ذات خلفية خضراء زاهية للرئيس المفعم بالنشاط والحيوية كابن العشرين ربيعًا، ممسكًا بقلمه وكأنه يخطُّ مستقبلًا واعدًا لسنوات قادمة.. **ايدينا العمر ونشوفه مرة من نفسنا»**.. تعليق عفوي من راكب دراجة خمسيني، أسمر، نحيل، يحمل أرغفة متراصة على خشبة كبيرة فوق رأسه.. أطلقه بمرارة وانطلق مدفوعًا بجوعه يسعى إلى رزقه غير عابئ بما حوله..

على استحياء وضعت ملصقات المرشحين الآخرين على التوالي، هذا يحاول أن يبدو





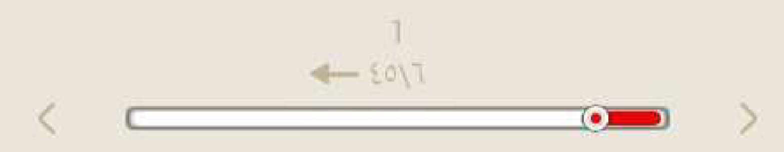
غامضاً، وذاك وجهه غير مريح، وثالث على شفتيه ابتسامة لزجة، والرابع لا حضور له على الإطلاق فلا تنطبع صورته في أي ذاكرة، والخامس بلا تاريخ يذكر فاستعان باسمه الرباعي لعله يعينه، أما الملصق الأخير الذي حظي بأكبر جمع من المواطنين حوله، فكان لرجل يرتدي طربوشاً، معروفاً للجميع، لكن مبعث دهشتهم كان من تَرَشُّحِهِ لرئاسة الدولة وقد قارب التسعين من عمره.. **ايبقى الأولاني صغير وأولى بيها»**.. يضحكون مبتعدين عن المتحدث حتى لا يتهموا بمساندته ولو بقلوبهم كأضعف الإيمان...

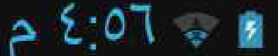
في حجرة أخرى في المنزل القديم ذاته وقف منير أمام المرآة يتأمل تجاعيد وجهه وهي تواصل الزحف بإصرار، بدت عيناه حمراوين، وتجعدت شعيرات رأسه الرمادية المتبقية أعلى فوديه، وتهدلت وجنتاه قليلاً وتكلست الوسادات الدهنية المنتفخة أسفل



عينيه من كثرة السهر، خمسة وعشرون عامًا وهو يمارس مهنة تعلمها بالمصادفة البحتة حتى سرت في عروقه واستقرت تحت جلده، فبات يؤديها وهو مغمض العينين، يحفظ تفصيلاتها عن ظهر قلب، يتصرف دومًا وكأن الحياة بدون مفاجآت فلا شيء يؤثر فيه ولا عوارض تجعله ينتبه، كالسائرين نيامًا، يمضون في طريقهم ولا يعرفون أبدًا أنهم سيفيقون في لحظة يحددها القدر، فيدركونها متأخرين دومًا.

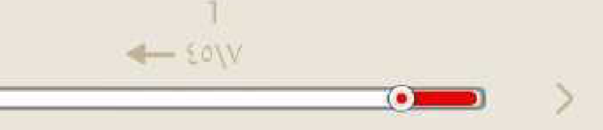
هذب شاربه، ثم غادر دورة المياه في تكاسل تاركًا لظهره وكتفيه بعضًا من حرية مُفْتَقَدَة، فانحنى ظهره وتساقط كتفاه كأنهما كانتا تنوءان بحمل ثقيل لسنوات طويلة، بعد أن تجاوز الستين بثلاثة أعوام كاملة.. ألقى نظرة خاطفة على شاشة التلفزيون في غرفة نومه بعد أن خفض مؤشر الصوت تمامًا كعادته،





لفت نظره شريط الأخبار الأحمر الذي تسبقه كلمة عاجل، ثم بدأ يرفع مستوى الصوت تدريجيا حتى لا تَهُبَّ زوجته النائمة في فراشها فجأة فتحيل نهاره إلى ليلٍ بهيمٍ من جراء غضبها، وأعصابها التي باتت منفلتة دائمًا في الآونة الأخيرة عقب اكتشافها أنه تزوج عليها عرفيًا مرتين، ورغم طلاقه لزوجتيه العرفيتين إلا أنها أحالت حياته لمعتقل وصارت كسجان يعد عليه أنفاسه كل يوم..

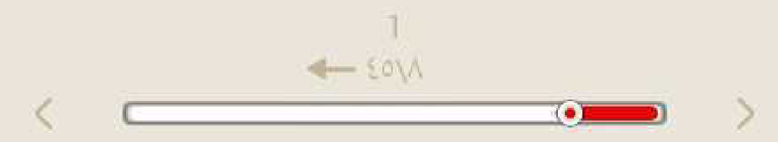
كان مذيع برنامج «صباح الخير يا مصر» يحرص على إخراج طبقات صوت رخيمة حماسية باتت أقرب إلى الهتاف، وهو يعلن الخبر التاريخي.. أطلت ابتسامة استنكار من بين شفتي منير مدركًا أن تلك النبرة من المذيع نابعة من عقله لا من وجدانه كلاعب الروليت الذي يراهن على ذات الرقم كل مرة أملًا فى الفوز، فربما يشاهده وزير الإعلام

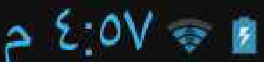


الحريص على متابعة البرنامج، أو الرئيس نفسه فينال الرضى من ولي النعم..!

الإخوة المواطنون.. نعيش لحظات تاريخية غير مسبوقة بعد إعلان الرئيس منذ أيام قليلة من موطنه بمحافظة المنوفية إجراء انتخابات رئاسية لأول مرة في مصر، و بعد أقل من ستين يوماا سيكون لدينا أول رئيس منتخب منذ عهد الفراعنة».

كتم منير الصوت مرة أخرى وشرع في خلع ملابسه قطعة تلو الأخرى، وكل برهة يلقي نظرة خاطفة على الشاشة، تارة صور أرشيفية من مدرسة المساعي المشكورة، وتارة أخرى صورة لرئيس الجمهورية بلا رابطة عنق وقد تخفف من زيه الرسمي قليلًا فبدا أصغر من سنه كثيرا! اكتفى منير بابتسامة موتورة تلك المرة ثم أكمل ارتداء بدلته.. تقلبت زوجته في فراشها ورمقته بنصف عين وحاجب





مرفوع كرقم ثمانية لا يبشر بأجواء ودية، قائلة بنبرة لا تخلو من الشك:

- على فين العزم بدري كده؟!

- آخر معاد للتقديم في الانتخابات النهاردة...

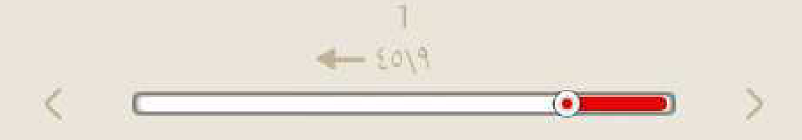
أجابها وهو يغادر مُؤْثرًا السلامة وإنهاء النقاش. التقى في طريقه بابنته الكبرى مريم التي كانت قد ارتدت ثيابها وتأهبت للخروج بدورها، طوَّقته بذراعيها وطبعت قبلة طويلة على جبينه كعادتها، فربَّت كتفها في حنوٍّ مستفسرًا منها عن برنامجها اليومي.. فقالت:

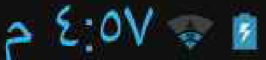
- الأجزاخانة كالمعتاد، بس قبلها رايحة....

صمتت فجأة ثم تلفتت حولها كالمُراقب وهي مبتسمة ابتسامتها المشرقة التي تضفي عليها بريقًا، واقتربت حتى ألصقت فمها بوجنته هامسة:

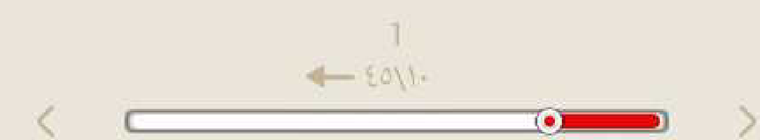
- الكنيسة!

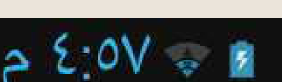
سكنت ملامح وجهه وبدت قسماته مطمئنة، فقد اعتاد سماع تلك الكلمة كل أسبوع؛ لأن





مريم أو مارلو كما يدللها لم تُغير ديانتها مثلما فعل هو مضطرًّا منذ نحو تسع سنوات ليتزوج من منيرة أم ابنه الوحيد شهاب، ذلك الصبي الانطوائي الخجول، بعد وفاة والدة مريم، زوجته القبطية الأولى، نسي تمامًا اسمه الحقيقي القديم: منير زكي إسطفانوس، ولم يعد يُعرف إلا باسم: منير.. هجر بيته القديم في منطقة شبرا، واستأجر شقة في حي السيدة زينب، ولم يعد يُخبر أحدًا بأنه كان مسيحيًّا، وعندما كان يُسأل ممن عرفوه قبطيًّا عن سبب اختياره اسم منير لنفسه، وهل يرجع ذلك لديانته الجديدة، أم تيمنًا باسم زوجته الثانية منيرة، كان يُجيب وفقا لمزاج السائل وديانته ومعتقداته، فلم تعد لديه القدرة على الدخول في مناقشات سوفسطائية أو حوار أديان! فكلها بالنسبة له أمور بلا معنى؛ إذ صار مؤمنا في السنوات





الأخيرة بأنه لا يوجد على وجه الأرض شيء ما يجعله يثور بسبب الآخرين، فليس من المنطقي أن يدفع فاتورة سوء خلق شخص آخر من رصيد أعصابه.. لذلك قرر أن يكون باردًا ليكسب عمرًا أهدأ!

انتفض فجأة ثم جذب مارلو من يدها، وكأنهما يفران من قسورة عندما علا صوت زوجته يعلن عن قدومها ناحيتهما بقامتها القصيرة، متدحرجة من فرط سمنتها وإهمالها لقوامها الذي كان يومًا ما يفتن رجال حي السيدة زينب قبل زواجه منها، وبسببه أيضًا تزوجها، أطلقت خلفهما سيلًا من الاتهامات بتدليل ابنته مريم التي تعيش معهما، كانت لا تطيق مجرد رؤيتها، فأقامت جدارًا عازلًا بينهما من اللامبالاة والتجهم في وجهها كل صباح، مع شجبٍ واستنكارٍ دائمين لكل تصرفاتها، فبدت مريم تجسيدًا حيًّا لأقلية مضطهدة، حسبما كان منير يتندر ساخرًا من



تصرفات زوجته، محاولًا التخفيف من وقعها على ابنته التي كانت حتى هذه اللحظة تلتزم بعهدها مع أبيها بإخفاء حقيقة ديانتها المسيحية حتى لا تتعرض لمزيد من التضييق من زوجة أبٍ باتت لا تنشغل في الآونة الأخيرة إلا بإصلاح أمر مريم، فتفتق ذهنها بعد تفكير عميق عن أن الحجاب هو الحل!

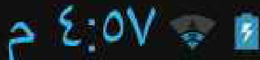
- حجاب؟ ولمارلو؟!

كررها منير على مسامع ابنته وهو يكتم ضحكاته بعد أن أغلقا باب الشقة، فجذب يدها متوجهًا ناحية الدرج العلوي وهو يسرع الخطى.. ضحكت قائلة:

- الحمام ولا الديوك؟!

اكتفى بابتسامة عريضة ولم يرد حتى وصلا إلى سطح البيت، كان الطقس متقلبًا نوعًا ما، حيث تعبث الرياح بما خفَّ وزنه وصار كمًّا مهملًا، في أقصى اليسار يقبع كشك خشبي





متوسط الحجم، أخضر اللون، يربي منير فيه طيور الحمام، منذ سنوات، كان قد اشتراها من صاحب البيت عندما استأجر شقة فيه، وظل يربيها لتتكاثر ثم يذبحها ولا يدعها تطير أبدًا، كمن يخشى هروبها دومًا.. وبجوار الكشك ثلاثة أقفاص تحوي ديوكًا شركسية.

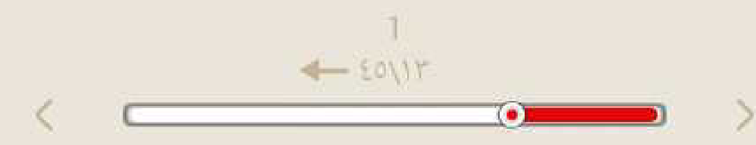
- جرب مرة تطيرهم يمكن يرجعولك تاني!

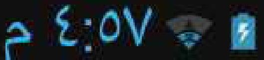
أجاب مريم، وهو منشغل بتغيير الماء ووضع الحبوب للطيور:

- صدقيني لو سألتي الحمام نفسه حيقولك مش عاوز يطير.. خلاص اتعودو على اللي هما فيه..

علت الدهشة وجهها، ثم ابتسمت بسخرية، فأردف:

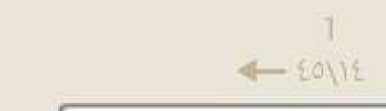
- هنا بياكل ويشرب وعايش في أمان.. لكن لو طار مين عارف ممكن يحصله إيه؟ حد يصطاده ولا طير أكبر ياكله أو حتى يموت من الجوع..

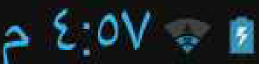




- ده اتخلق علشان يطير ورزقه على الله..
قاطعها:
- وفي الآخر برضه حيندبح ويتاكل.. يبقى لزومه إيه الطيران؟ كده أنا ضمنت له حياة مرفهة على الأقل..

قالها وهو يضحك مضاعفًا كمية الحبوب وكأنه يغيظها أكثر.. أشاحت بوجهها في يأس وهي تتأمل ثلاث يمامات تحوم قريبًا منهما وترفرف بحرية، مراقبة الحبوب التي ينثرها منير في أوان فخارية مستطيلة، بينما قبعت طيوره ساكنة مستسلمة لقدرها فبدت لها طيورًا داجنة منتفخة، وكأنها فقدت ذاكرة التحليق والرفرفة، ورضيت بما اختاره منير لها من مصير، فسكنت كتماثيل جامدة من حجر أصم. تركها لخيالها كي يُطعم ديوكه وينثر قطعًا صغيرة من الكبدة النيئة والأسماك على العلف الخاص بها لتلتهمه في ثوانٍ وهي



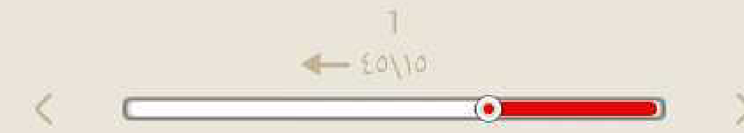


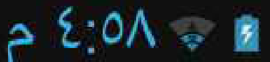
تروح وتجيء في أقفاصها، وكأنها طيور جارحة تنتظر لحظة الفتك بفريستها على أحر من الجمر.

على ناصية الطريق افترقا بعد أن ألقى عليها محظوراته اليومية: **لا تلطُّف مع الزبائن. لا حديث جانبيًّا مع نجل صاحب الصيدلية. لا تأخير عن العودة للبيت بعد انتهاء العمل.**

اتجهت مارلو إلى الكنيسة التي علت أصوات أجراسها وكأنها تلح على منير بدقاتها ليذهب مع ابنته!

قبع هو في سيارته القديمة مرتديًا نظارته الطبية السميكة المقعرة في طريقه إلى ميدان التحرير كعادته؛ ليترك سيارته في «جراج» عمر مكرم، ثم يستقل سيارة أجرة في رحلته التمويهية اليومية.. ما إن غادر الجراج متأهبًا لعبور الطريق إلى المجمع، حتى لفتت نظره حركة غير عادية في الميدان، زحام شديد واختناق مرورى فى الربع الأخير منه..

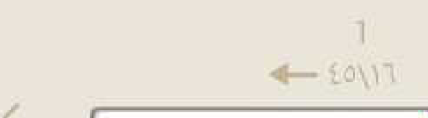


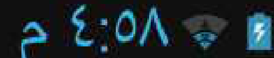


انتشر أصحاب الرتب الكبيرة وتابعوهم من الرواد والنقباء لتفقد الوضع وتبادل تمام التعليمات عبر أجهزة اللاسلكي..

اقتربت سيارة شرطة زرقاء حتى توقفت قبل مسجد عمر مكرم بمسافة قصيرة، وخرج من صندوقها الخلفي سبعة رجال تغلب عليهم السمرة والبدانة وكأنهم جنود مرتزقة يعرفون دورهم، وفي لحظات كان الباعة يفرون في اتجاهات عشوائية متقنة، كما لو كانت متفقًا عليها مسبقًا لتشتيت انتباه المخبرين.

وقف منير يتأمل المشهد عاقدًا ذراعيه على صدره، وفي لحظة خاطفة مرق بجواره، كالسهم، شاب قصير، نحيل، أسمر، يرتدي نعلًا بلاستيكيًا ضيقًا، بحيث تخرج أصابع قدميه الطويلة من مقدمته بوضوح وهو يحمل صينية فضية صدئة يقلب فوقها أثناء عدوه كوبًا من الشاي الثقيل حتى استقر به المقام

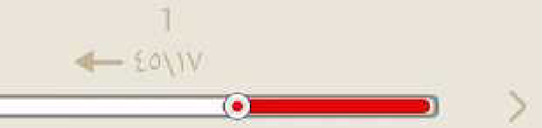




أمام سيارة الشرطة، فتناولها منه العقيد دون أن يلتفت إليه وكأنها قربان صغير مقرر لبقائه بنصبته الصغيرة في الميدان.

انشغل العقيد حسين عناني بمتابعة معركته مع الباعة الجائلين ممن فروا بقرابينهم من مخبريه! وأعطى توجيهاته بإخلاء الربع الأخير من الميدان، ثم ترجَّل من السيارة بعفوية متحدثا في جهازه اللاسلكي عن تمام الانسحاب وتأمين المنطقة، وملامح وجهه تحمل الكثير من التأفف والضيق كأنه يؤدي عملًا إضافيًّا!

وجد منير نفسه محشورًا فجأة بين صفين متراصين كبنيان أعوج من الأمن المركزي، يحجبان عنه الرؤية بخوذهم السوداء الضخمة الثقيلة، وحوله عشرات الأشخاص من أعمار مختلفة رجالًا ونساءً، شبابًا وشابات، جميعهم بلا استثناء تلوح أيديهم فى حماسة جارفة بالأعلام الموزعة عليهم،





تفرَّس منير في وجه أحد المجندين المواجهين له.. كان اصفراره يبدو واضحًا رغم السمار الطاغي على بشرته التي لوحتها شمس الظهيرة في كل تشريفة، ومثل حية تفترس طائرًا صغيرًا قليل الخبرة فيظل متسمرًا أمامها بلا حراك حتى ينهار من داخله، ظل المجندون يقاومون الطقس الحار، وسيقانهم تئن حتى تستغيث مع ضعف بنيانهم وهزال غالبيتهم ولا تسمع لها مجيبًا.. قفز إلى مخيلته وقوفه منذ أربعة وأربعين عامًا في المكان ذاته عندما كان مجندًا مثلهم، وقتها التفت رغمًا عنه، فلم يقوَ على كتم فضوله لرؤية جمال عبد الناصر في سيارته المكشوفة وبجواره الرئيس السوري في نهاية أيام الوحدة العربية، قبل استحالتها إلى عزلة بعدها بشهور قليلة، وبحركة لا إرادية وجد نفسه وقتها يلوح بكفه محييًا الرئيس، وتصور





تفرَّس منير في وجه أحد المجندين
المواجهين له.. كان اصفراره يبدو واضحًا رغم
السمار الطاغي على بشرته التي لوحتها شمس
الظهيرة في كل تشريفة، ومثل حية تفترس
طائرًا صغيرًا قليل الخبرة فيظل متسمرًا
أمامها بلا حراك حتى ينهار من داخله، ظل
المجندون يقاومون الطقس الحار، وسيقانهم
تئن حتى تستغيث مع ضعف بنيانهم وهزال
غالبيتهم ولا تسمع لها مجيبًا.. قفز إلى مخيلته
وقوفه منذ أربعة وأربعين عامًا في المكان
ذاته عندما كان مجندًا مثلهم، وقتها التفت
رغمًا عنه، فلم يقوَ على كتم فضوله لرؤية
جمال عبد الناصر في سيارته المكشوفة
وبجواره الرئيس السوري في نهاية أيام
الوحدة العربية، قبل استحالتها إلى عزلة
بعدها بشهور قليلة، وبحركة لا إرادية وجد
نفسه وقتها يلوح بكفه محييًا الرئيس، وتصور





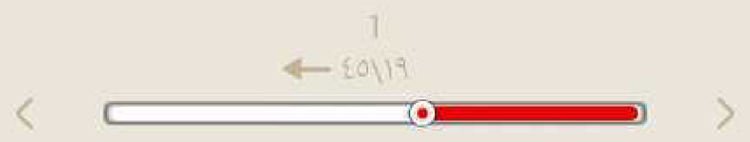
لوهلة أن «ناصر» يحييه، فشعر بفخر ونشوة، أفاق منهما على يدٍ غليظة تسحبه من ذراعه خطوتين إلى الوراء، وكأنه قطعة شطرنج انتهى دورها بحركة مباغتة، تلاقت نظراته مع مَنْ جذبه، كان رجلًا ضخمًا، فظَّ الملامح، تشي هيئته بأنه شرطي رغم ملابسه المدنية، فامتثل ونقل بصره إلى المجند مرة أخرى سائلًا إياه وهو يتراجع بابتسامة مشجعة على الحديث:

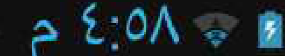
- **تشريفة مين يا دفعة؟**

ابتسم له المجند فكشف عن صفين من أسنان صفراء يعتريها السواد في معظم فوارقها لتزيد الابتسامة من كآبة وبؤس منظره، ثم تصنع المراوغة وهو يمط في عبارات كلامه قائلًا:

- **تشريفة رياسة يا فندي...**

ثم تجهم وجهه فجأة وشدَّ قامته النحيلة رافعًا رأسه إلى أعلى قليلًا، فالتفت منير إلى





يساره ليرى لواء شرطة يسير في خيلاء
كديكٍ روميٍّ سئم حظيرته الضيقة، وأزرار
سترته تكاد تئن تحت وطأة كرشه المنتفخ،
وخلفه ثلاثة ضباط متأخرين بخطوة،
ويمدون أعناقهم بعد خفضها قليلًا ليستمعوا
إلى تعليماته ويجيبوه بما يطمئنه فقط،
اشرأبت عنق منير ليتابع سيارات الموكب
وهي تمر مزمجرة، مصفرة، وبعضها يتحلى
بفوانيس زرقاء تدور بسرعة وتطلق أنوارًا
متقطعة، خاطفة، تلهي الناظرين عما بداخلها،
أمعن النظر ودقق لعله يرى الرئيس.. مرت
سيارات كثيرة متشابهات، ذات ستائر داكنة،
أحصى منها أربعين، ثم تشتت ولم يعرف بأيها
كان يقبع سيادته.. تُرى هل هو غير موجود؟!
ظل ساهمًا حتى قطع حبل أفكاره صوتُ
لواء الشرطة منتفخ الأوداج في جهاز
اللاسلكي، وكأنه يجيبه ببساطة على كل





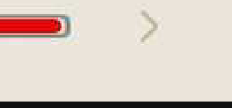
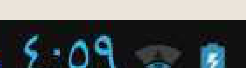
تساؤلاته بجملة واحدة:

- من عدمه يافندم!!

أشار منير لسيارة أجرة، ثم غاص في المقعد الخلفي لها مكتفيًا بكلمة واحدة لتوجيه سائقها:

- الزمالك..

كان في طريقه إلى البار الذي يعمل به، لكنه كان يخفي على أولاده وزوجته حقيقة عمله كساقٍ في حانة الفندق الذي تديره وتملكه شركة الفنادق الحكومية الشهيرة، كلهم يعرفون فقط أنه مدير مالي في إدارة الشركة.. إلا شخصًا واحدًا، عرف عن طريق الصدفة السيئة التي لم يتمنَّها منير يومًا.. إنه حمدي عباس الشهير بأبي عدنان، الذي تعرف عليه في بدايات عمله بالحانة، وصار بعدها مورِّد بضائع محله من «الطُّرح» وملابس المحجبات، وصاحب النصيب الأكبر مع زوجة منير الجديدة، ورغم أن الفندق الذى يعمل به

منير متواضع نسبيًّا ولا يتعدى تقييمه ثلاثة نجوم، إلا أن حانته التي تقبع في قبوه الفسيح، صارت هي الأشهر على الإطلاق في القاهرة كلها، وصار اسم ساقيها مرتبطًا بها، فلا تذكر الحانة إلا مسبوقة أو مشفوعة به بعد أن أمضى بها ربع قرن من الزمان، كبر فيها ومعها وأصبح مرتادوها يطلقون اسمه عليها، ومع الوقت تناسوا اسمها وظهرت أجيال جديدة لا تعرف اسم الحانة الأصلي بعد ما أطلق أحد نجوم سينما الخمسينيات والستينيات على منير اسم «ستيقي»، تحويرًا للقبه القديم «إسطفانوس»، وصارت الحانة تُعرف بهذا الاسم، فتوحدا معًا.

ولما انطفأت أضواء الكاميرات أمام ذلك النجم السينمائي الشهير، قبع في ظلام الحانة كل ليلة؛ ليسمع حكايات نميمة من ستيقي عن المجتمع، كان بمثابة جريدة ناطقة له.

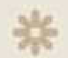




منير متواضع نسبيًّا ولا يتعدى تقييمه ثلاثة نجوم، إلا أن حانته التي تقبع في قبوه الفسيح، صارت هي الأشهر على الإطلاق في القاهرة كلها، وصار اسم ساقيها مرتبطًا بها، فلا تذكر الحانة إلا مسبوقة أو مشفوعة به بعد أن أمضى بها ربع قرن من الزمان، كبر فيها ومعها وأصبح مرتادوها يطلقون اسمه عليها، ومع الوقت تناسوا اسمها وظهرت أجيال جديدة لا تعرف اسم الحانة الأصلي بعد ما أطلق أحد نجوم سينما الخمسينيات والستينيات على منير اسم «ستيقي»، تحويرًا للقبه القديم «إسطفانونس»، وصارت الحانة تُعرف بهذا الاسم، فتوحدا معًا.

ولما انطفأت أضواء الكاميرات أمام ذلك النجم السينمائي الشهير، قبع في ظلام الحانة كل ليلة؛ ليسمع حكايات نميمة من ستيقي عن المجتمع، كان بمثابة جريدة ناطقة له،





فستيقي لديه قدرة هائلة على مواصلة الحكي وتوليد القصص من بعضها البعض، حتى وهو منغمس في العمل، مثله مثل الأخطبوط، يناول ذلك زجاجة، ويقدم كأسًا لآخر، ويزين طبقًا من المقبِّلات الخفيفة المزينة ببعض الخضرة وهو يحادث تلك، ويضحك مع هذا، ودائمًا وأبدًا لا يذوق الخمر، ولا يفكر مجرد التفكير في الاقتراب منه!

كل شيء حدث بالصدفة، فلم يكن سوى عامل بسيط بالفندق يحمل الحقائب، بعدها انتقل إلى خدمة الغرف، اختلط بالزبائن واقترب منهم أكثر، وعندما مرض مساعد الساقي حل محله لمدة أسبوع. وخلاله اكتشف - وهو الذي لا يحب رائحة الخمر - أنه صاحب اليد العليا على زبائنه المخمورين فاستخدم قدرته على الإيحاء بأن ما يقدمه لهم مختلف عن من سبقه فتقبلوه سريعا وتعلقوا به أكثر من الحانة نفسها.. ظل يقترب



منهم أكثر حتى عرف أسرارهم وخبايا نفوسهم، وكتمها بداخله ليستخدمها وقت الحاجة ليسيطر عليهم، ويتعلقوا به فلا يفارقونه أبدا فكانوا يبحثون عنه بأعينهم بمجرد دخولهم الحانة، ولا ترتاح قسمات وجوههم إلا عندما تقع أبصارهم عليه؛ مثلهم مثل الوليد الذي يهتدي لصدر أمه برائحتها.. يظل يعبث بشفتيه حتى يلتقم ثديها فلا يتركه حتى يشبع.

دبت الحياة مرة أخرى في هاتفه المحمول، بعد أن ابتعدت به العربة عن محيط الموكب الرئاسي، زوجته كانت هي المتصلة الأولى، أجابها ببرود وهو يتابع شزرا عيني السائق المتلصصتين في المرآة الأمامية للسيارة.. طال حديثها حتى ضاق به وبها، فظل يبعد الهاتف عن أذنه كل برهة متأففًا وهو يتأمل الطريق من نافذة السيارة، فصافحت عيناه



لافتة قماشية عريضة تحمل عبارة «مصر مبارك» بالبنط العريض، كانت زوجته أم شهاب حسبما تحب أن يناديها جيرانها بعد أن ارتدت الحجاب مؤخرًا، امرأة بسيطة وجميلة ومحبة للحياة، جرى وراءها رجال وشباب كثيرون فلم يفز بها إلا هو، مشهرًا إسلامه قربانا لحبه وولعه بها نازعا وازعه الديني بمخالب شهوته وسطوة مشاعره الجارفة نحوها، فأنجبت له الولد الذي أراده وتمناه، وبعدها صار كذكر النحل لا فائدة منه ولا حاجة لها به، تبدلت الزهرة الفواحة الجميلة حتى ذبلت وإن كان وجهها لا يزال يحتفظ بمسحة من جمال قديم، ولكنه جمال كسول، راحت منه النضرة والأنوثة، بعد أن أهملت نفسها حتى لَيَحْسَبُها المرء متورمةً من فرط بدانتها، ثم انشغلت عن منير بولدها شهاب، ثم بالاثنين معًا مع صحبة من جيرانها عندما انخرطت فى دروس دينية لشيخ نصف



مشهور ممن طفوا على السطح فجأة، فتغيرت نظرتها إلى مجتمعها، وتبدل مفهومها لحياتها حتى ضاقت نافذتها التي تطل منها على الدنيا أكثر فأكثر، فلم تعد ترى منها إلا لونين فقط.. أبيض وأسود، رداءها وطرحتها، وكأنها عادت بالزمن إلى عصور سحيقة، تزمتت فاعتزلت أغلب صديقاتها القدامى، ثم تفرغت لمناوشة مريم ابنة منير فجعلتها هدفًا ثابتًا لها كلما تحركت أمامها، فراحت تطلق عليها وابلًا من رصاصات الانتقاد وسهام السخط والتأنيب والتوبيخ، ومريم تجاهد لإخفاء ديانتها المسيحية، أما منير فقد كان لا حول له ولا قوة أمامها، لا يستطيع أن يطلقها بعد أن صارت أم ولده الذي طال انتظاره وطالما تمناه، فضلًا عن أنها صاحبة الحصة الأكبر في محل بيع ملابس المحجبات الذي يتولى إدارته في أيام راحته من الحانة.



لم تستجب زوجته لمحاولاته إنهاء المحادثة، واستمرت في إملاء أوامرها بشأن شراء بضائع جديدة يحتاجها المحل بعد انتشار الحجاب في منطقتهم في الآونة الأخيرة، وما ناله من شهرة في مناطق مجاورة.. اضطر إلى أن ينصت إليها باهتمامٍ تلك المرة، فأرباحه من محل الملابس هي التي يعيش منها بعد أن أقنع نفسه بتحويل كل ما يكسبه من الحانة من أموال إلى بضائع، باعتبار أن ربح الخمور الحرام يذوب في إيرادات بيع ملابس المحجبات الحلال، فتزول حرمانيته حسبما سمع من فتوى أحد شيوخ المنطقة.

- فين في الزمالك يا باشا؟

قالها السائق وعيناه تتعلقان بشفتي منير الذي لم يتوقف عن الحديث طوال الطريق في هاتفه، فأجابه وهو يكتم الهاتف بكفه:

- عمارة لوبون على الكورنيش..





لم يكن يريد أن تسمعه محدثته في تلك المكالمة.. التي لم تكن سوى سيدة الأعمال زينة، وهي من أهم زبائنه بالحانة وأكثرهم سخاءً.. امرأة متفجرة بالأنوثة، في نهاية الثلاثينيات، شقراء، جميلة، ثرية، يوحي مظهرها بأرستقراطية ضاربة في الجذور، رغم أنها تنحدر من عائلة متواضعة اجتماعيا واقتصاديا، مطلقة من رجل أعمال معروف يمتلك سلسلة مطاعم شهيرة، بعد أن عاشت معه حياة مزدوجة مضطربة، كانت قبل نهايتها بقليل امرأة منتقبة، بعد إصراره على حجبها عن مجتمعها بستارة سوداء تغطي وجهها، عانت كثيرًا من ضعفه الجنسي ومعاملته الفظة وإهاناته المتكررة لها، لطالما شعرت بأنها مجرد لوحة غالية الثمن أضيفت إلى مقتنياته الثمينة، فلما ملَّ من التطلع إليها، ولم تعد تبهجه، نقلها إلى مخازنه؛ ليبحث عن



تحفة جديدة. لم يعد يراها أو يشعر بوجودها أحد، حتى شعرت بأنها قد ماتت موتًا مدنيًّا، عانت كثيرًا لتحصل على حريتها منه وتطلق عبوديتها، فرفض وازداد عناده، فخانته مع أحد أصدقائه عمدًا بعد أن أوحت إلى الصديق زيفًا بحبٍّ ورغبةٍ طمعًا في طلاق وشيك، فنالت ما تمنت، بعدها جُنَّ جنون زوجها، فطردها من قصره وتركها بلا طلاق أو معاشرة، فاستغلت وضعها الجديد في خلعه وخلعت معه نقابها، ثم انفتحت على المجتمع بأسره وصارت لا ترتدي من الملابس إلا أقلها قطعًا، وأقصرها طولًا، وكأنها تعوض ما فاتها! ثم أشرقت شمسها كسيدة أعمال بمدخراتها من سنوات الشقاء وما باعته من حُلي نجحت في إخفائها منه عندما طردها من جحيم جنته فدخلت سوق قطع غيار السيارات والكاوتشوك لتتربع على عرشه، وأضاءت كل ليلة حانة ستيفى بجوقة من الأصدقاء الجدد





وأصحاب المصالح وبعض الرعاة لأنشطتها وملذاتها أيضًا!

- كام فرد يا زينة هانم؟

أجابته وهي تتثاءب في فراشها:

- تسعة يا ستيڤي.. لكن عاوزة الجرسون زين يخدمنا طول السهرة..

ابتسم منير على ذكر اسم النادل زين، فقد أدرك على الفور أن بصحبتها بعض الشواذ؛ لذا اختارت مَن يناسبهم ويفهم مزاجهم ليلبي احتياجاتهم..

ترجَّل منير من السيارة عند عمارة لوبون العريقة ودلف من بوابتها الفسيحة مغادرًا إياها من الجانب الآخر الموازي لكورنيش النيل دون أن يصعد إلى أيٍّ من طوابقها، عادة لم يغيرها منذ عشرين عامًا أو يزيد، وكأنه يهرب من شبح.. شخص وهمي لا وجود له إلا في مخيلته، يظن دائمًا أنه يسير خلفه



ويتتبعه؛ ليعرف إلى أين سيذهب فيحاول تضليله.. يدخل في عقار من باب ويخرج من باب آخر خلفي، يستقل سيارة أجرة بعد أن يترك سيارته في جراج عمر مكرم، ثم يترجل من التاكسي الأخير قبل الفندق بمئتي متر على الأقل، ويسير وهو يتلفت خلفه كل بضعة أمتار، حتى يدلف من البوابة الخلفية للفندق، ويسرع الخطى نحو غرفته الصغيرة الملاصقة للحانة من ناحية المطبخ.. فيتهاوى على مقعده ليلتقط أنفاسه المتلاحقة، ثم يشعل غليونه في هدوء بعد أن يخلط التبغ بقليلٍ من زيت الأفيون الخام الذي أدمنه منذ سنوات، وعندما يبدأ الخدر الخفيف يسري في أوصاله ويشعر بتنميلة في رأسه، يتهيأ لوضع اللمسات الأخيرة قبل دخوله إلى الحانة، فينزع نظارته السميكة ويرتدي عدساتٍ لاصقةً ملونةً بلون أقرب إلى زرقة السماء الصافية، بعد أن تخلى عن نظارة ذهبية ذات



إطار رقيق شفاف كان يستخدمها في سنوات سابقة، ثم يضع على رأسه نصف باروكة بلون فضي لامع، ويتأمل خاتمًا ضخمًا ذا فصٍّ أزرق زهري في بنصره. يضبط وضعيته ولا ينسى أن يتأكد من لمعان حذائه الأسود رغم ظلام الحانة وإضاءتها الخافتة. بعدها يقف أمام المرآة ليعدل وضعية البابيون الأحمر الناري المنتفخ على قميصه الأبيض ذي الأزرار الذهبية شديدة اللمعان، يلحظ أن جفن عينه اليسرى لا يزال منكسرًا قليلًا رغم جرعات الحقن التي داوم عليها منذ شهور..

زمَّ شفتيه ضيقًا، ثم أجاب على محادثتين هاتفيتين قبل أن يغادر الغرفة، تلقى فيهما حجزًا لطاولتين من رواد دائمين يعتبرهم من زبائنه المفضلين الذين يضبطون مواعيد سهراتهم في الحانة على أيام تواجده بها..

طالت المحادثة الأولى أكثر من الأخرى ربما





لتفضيله مدحت المعداوي طبيب النساء
الشهير في أوساط راغبات إعادة غشاء البكارة
أو التخلص من الأجنة أيًا كان سبب حملهن؛
فهو أمر لا يعنيه على الإطلاق ولا يتوقف
أمامه كثيرًا، لديه تسعيرة محددة وضعها
لحالات الإجهاض حتى ولو كانت الحالة
متزوجة والحمل يهدد حياتها، فكلهن عنده
سواء.. أما زبونه الثاني فؤاد فخري الذي
حجز طاولة صغيرة منزوية لشخصين فقط،
فهو ذلك العاطل القادم على خلفية
أرستقراطية لعائلة عريقة ولكنها شبه مفلسة
حاليًا.. رجل في أوائل الخمسينيات، لا يحب
العمل ولكنه يهوى كل ما عدا ذلك وبشراهة
استهلاكية، باع آخر فدادين عائلته وارتبط
مؤخرًا براقصة مغمورة تدعى زيزي بعد أن
شعر ناحيتها بعواطف جياشة، نجحت هي
في تأجيجها بدلال منظم ظنًا منها أنه الثري
الذى سينتشلها من مستنقع الفقر وحياة



المغمورين، فلما خاب ظنها واكتشفت حرصه الشديد على أمواله التي يحلبها من بقرة غَلَبَها الهزال بعد أن جفَّ ضرعها، ارتضت بأن تشاركه السهر في الحانة وترقص على مائدته ربما تلقى إعجاب أحد المترددين على المكان، آملة أن تودع بعدها ثقل ظل فؤاد، ورومانسيته القديمة، وشجونه وأحزانه وآلامه، وقصته مع مطلقته التي لا يكفُّ عن تكرارها على مسامعها كل ليلة..

دوَّن منير حجوزات زبائنه، ثم راجع «مانيفستو» أوامر تشغيل العمال والطباخين، ثم أجرى اتصالًا هاتفيًا ثقيلًا على قلبه مع الإدارة ليخبرها بعجزه عن تقديم أوراقه إلى انتخابات الغرفة السياحية بسبب تعطل العمل بالمجمع نتيجةً لموكب، وخطاب، وإعلان الرئيس الترشح، فجاءه رد الإدارة مغلفًا بالصلف عندما أخبره مدير الفندق بحدة:



- منير.. أنت تجاوزت فترة التمديد خلاص، ولو مُصر على الاستمرار في البار يبقى لازم تنجح في انتخابات الغرفة علشان نجدد لك، اللوايح بتقول كده..

أومأ منير بالإيجاب وهو يجزُّ على أسنانه، فخرجت الكلمة معبأة بالضيق الممزوج بالضجر:

- حاضر..

تأمل نفسه في المرآة لآخر مرة وكأنه في انتظار سماع دقات ثلاث ليصعد إلى خشبة مسرح ويلتقي جمهوره، شدَّ قامته وهندم سترته البيضاء وغادر كقائد عسكري صارم في طريقه لتفقد قواته، كانت الحانة خالية من الرواد؛ فهي لا تقبل أيًّا منهم قبل الواحدة ظهرًا، وتستمر في العمل حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، لا يزال أمامه أكثر من عشرين دقيقة، استند بذراعه إلى



طاولة البار الذي يقف خلفه ساقيًا كل ليلة،
وزجاجات الخمر المختلفة تتلألأ على أرففه،
قلب كأسًا وطرق بها مرتين في تناغم
فاصطف أمامه فريق عمله على صفين كل
صف يضم ثلاثة نُدُل، مضى يفحص ملابسهم
ونظافتهم الشخصية، توقف عند أولهم: موفق
الساكت، لكزه في بطنه مؤنبًا إياه على ترهل
كرشه، فابتسم له وهو يعده بالخلاص منه
خلال أيام قليلة. ربَّت منير كتف منتصر
الجمل مشجعًا ومحفزًا ذلك الشاب الرياضي
الطويل ذا الوجه البشوش الذي يخفي خلفه
طموحًا لا يعرف اليأس أبدًا لاقتناص فرصة
ليحل محل منير في إدارة الحانة يومًا ما..
أبطأ من مشيته أمام نادر وهو يتأمل لحيته
الخفيفة النابتة أسفل شفته فقط.. كان نادر
قليل الكلام، حسن الإنصات، دقيق الملاحظة،
جادًّا مع زبائنه وكأنه أمين مكتبة، يفضل دائمًا
خدمة روادها من قدامى الزبائن وكبار السن..



السن..

- الجزمة محتاجة تتلمع..

قالها منير وهو ينقل بصره من نادر إلى لمعي، القصير البدين، الذي أطال شعره بكثافة من ناحية اليسار حتى لامس كتفه ثم قلبه ليغطي صلعته البراقة، كان في الأصل «ريچيسير»، ثم التحق بالحانة منذ سنوات، وترسخت أقدامه فيها بسرعة؛ فقد كان سريع البديهة، يحفظ مئات النكات ويجيد إلقاءها مستغلًّا هيئته وتكوينه الجسدي، فيجبر المتلقين من رواد الحانة على الانفجار في الضحك، خاصة وهو يقلد بعض الفنانين أثناء تقديم المشروبات.. كان زين هو التالي مباشرة للمعي، فابتسم له منير وهو يغمز بعينه اليسرى ذات الجفن المتهدل قليلًا:

- ضيوف الليلة مهمين.. إوعى تكسفنا!

ابتسم الأخير بمجون وهو يعبث بشاربه الذي



يغطي نصف وجهه الأسمر النحيل ويهز رأسه بالإيجاب، محركًا إصبعه أمام عينيه مرتين، مطمئنًا منير أنه سيقوم بعمله على أكمل وجه.
كان آخر نادل في الصف الثاني هو ضياء العجمي، لم يكن منير يحبه ولا يرتاح لوجوده بالحانة، ويراه دائمًا وصوليًا انتهازيًا فجًا، واتته فرصة للخلاص منه عندما اكتشف منذ شهرين أنه يُزوِّر فواتير شراء زجاجات خمور من السوق الحرة، ولكنه تراجع وبدلًا من إبلاغ الإدارة لرفته تكتم الأمر بعد أن أفهم ضياء أنه كشف سره، وهدده فتوسل إليه الأخير بأن يعفو عنه ويعطيه فرصة أخرى، فقبل منير متظاهرًا بأنه يفعلها على مضض، بينما أضمر في نفسه أمرًا لم يكن قد حان وقته المناسب بعد، فابتسم لضياء ابتسامة زائفة معلبة وهو يربِّت كتفه، فبادله بمثلها وكأنه يقرأ أفكاره مما أربك منير قليلًا فبان توتره في مشيته، فخطا خطوتين واسعتين إلى الأمام لمداراته،

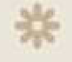


ثم صفَّق بيده في عصبية مرتين فبدأ كل نادل منهم يمر على الطاولات ليراجعها ويتأكد من نظافتها، ويفحص الأكواب والكؤوس، ويراجع زجاجات الخمور التي تحمل ملصقًا صغيرًا عليه أسماء أصحابها ليبلغوهم إذا ما أوشكت على النفاد، بينما دخل ستيقي إلى المطبخ ليراجع قوائم الطعام ويفحص عينة عشوائية منه، وعندما اقتربت الساعة من الواحدة ظهرًا أشار إلى لمعي ليخفف درجة الإضاءة إلى المستوى الثاني، ثم ارتكن إلى طاولة بمنتصف الحانة في انتظار أول رواد هذا اليوم التاريخي، مثلما أعلن بحماس منقطع النظير مذيع القناة الأولى صباح اليوم، وظهرت من ورائه اللوحة الكبيرة التي تتصدر خلفية البار وتجسد أربعة أشخاص متفاوتين في الأعمار، عميان لا يبصرون، يتحسسون بأيديهم جسد فيل ضخم تنبئ عيناه عن



ابتسامة ساخرة أجاد مبدع اللوحة في تصويرها، وكأنه يتحداهم أن يتعرفوا على حقيقته.

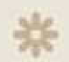
بسيجاره الشهير الذي يسبقه برائحته النفاذة معلنًا عن وصوله، دخل الحانة المحامي الأعلى سعرًا في مصر وحيد حلمي، الذي صار أشهر من نار على علم من كثرة ما ترافع في قضايا الفساد خلال السنوات الخمس الأخيرة، حتى صار مؤشرًا طرديًا له كلما استشرى الفساد في البلاد تردد اسمه وانتشر. رحَّب ستيڤي به باحترام يفيض عن الحاجة كعادته مع من يشعر أنه يدخرهم لوقت ما لم يحن أوانه بعد، خلفه كان اثنان من مساعديه، كعادة ثلاثتهم ظُهْرَ كل أربعاء يتناولون طعام الغداء في الحانة ويعرضون عليه بعض ما يواجههم من صعاب ومشاكل قانونية، فيستمع إليهم وهو يتناول شرابه المعتاد من زجاجته الخاصة، ثم يوجههم بعبارات مبتورة



بعد أن يسري خدر بسيط تحت جلده فيتوقف وقتها عن الشراب.

ازدحمت الحانة برواد الظهيرة وزبائن منتصف النهار، قبل أن يفرغ المحامي الشهير من طعامه اقترب منه ستيڤي هامسًا ببضع كلمات في أذنه، فأومأ بالإيجاب موجهًا بصره إلى يساره، حيث توجه ستيڤي في خطوات خفيفة سريعة رشيقة كلاعب باليه إلى حيث تجلس سيدة خمسينية بدينة ورجل أرستقراطي وقور، انحنى ستيڤي أمامهما بأدب، بعدها ببرهة سلمه الرجل مظروفًا أبيض استقر بعد لحظات بين يدي المحامي الشهير الذي ابتسم ابتسامة زائفة للرجل وزوجته، ودفع بالمظروف إلى أحد مساعديه وهو يشعل سيجاره الكوبي الطويل:

- بُص على العقد ده بسرعة وقولِّي رأيك في كلمتين..



لم يمر وقت طويل؛ فالعقد كان من ثلاث ورقات فقط، يتعلق بعقار قديم يرغب الرجل في شرائه من ورثة مالكه، ولأن قيمة العقد عدة ملايين لوقوع العقار في حي الزمالك، فلم يكن المحامي وحيد حلمي في حاجة إلى استنتاج الباقي، بل اكتفى بالشرود في عدد الطوابق التي سيرتفع بها البناء الجديد بعد هدم القديم..

- العقد ممتاز وموش محتاج لأي تعديل..

قالها المساعد الجاد المنضبط وهو يخلع نظارته الطبية، فأشار وحيد حلمي إلى ستيڤي الذي مثل بين يديه.. تفرَّس وحيد في وجهه، ثم نفث دخان سيجاره مطبقًا عليه بفكيه، قائلًا بنبرة واثقة، متعالية:

- شوف يا ستيڤي.. قولهم ده عقد ميعملوش طالب في كلية الحقوق، وبصراحة أنا شاكك إن اللي كتبه محامي..



ساد صمت الفضول في انتظار تفسيرات المحامي الأشهر الذي انشغل في إرفاق كارته الخاص بالعقد؛ ليعود ستيقي أدراجه بالمظروف مرة أخرى، بينما الدهشة ظلت ساكنة في ترقب على وجهي مساعدي وحيد الذي خفض من صوته قائلًا بعينين تلمعان، وابتسامة ماكرة:

- متستغربوش.. المحاماة مهنة، وكل مهنة فيها إبداع، ولو قلتلهم العقد كويس يبقى معناها إنك تفتقر للخيال ومعندكش جديد، وحيقولوا إننا شفنا العقد ده ووافقنا عليه.. يعني كإننا إحنا اللي عملناه بس من غير أتعاب!

اتسعت دهشة مساعديه فزادهم من الشعر بيتًا آخر، مردفًا:

- الناس دي زباين تقيلة، وحيجولنا المكتب واحنا كل اللي حنعمله حنكتب مقدمة للعقد



بدل التمهيد، ونعيد ترتيب البنود، وبعدين نعدل الصياغة ونضيف بند أو اتنين نخليهم يحسوا إننا عملنالهم حاجة تحفظ حقوقهم.. شوية كلام إنشا مش أكتر..

وقبل أن يستعد أيٌّ من مساعديه للتعليق على ما قاله، عاجلهما بمقولته المعتادة عن كل أعماله وهو يرجع بظهره إلى الوراء والغرور يكسو وجهه:

- وبعدها بشهر بالكتير حتلاقوا العقد بتاعنا نموذج في كل المكاتب بيقلده المحامين...

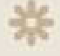
ابتسم المساعدان في انبهار، والتفت أحدهما ناحية طاولة الرجل والسيدة، فوقعت عيناه على الرجل قادمًا ناحيتهما وهو يسرع الخطى، فرحًا، واضعًا ابتسامة كبيرة على شفتيه، وهو يمد يديه الاثنتين، منحنيًا بامتنان لكي يصافح بفخر وزهو المحامي وحيد حلمي، الذي دعاه إلى تناول مشروب من زجاجته، بعد أن اطمأن على ابتلاعه



الطُّعم بهدوء.

***







عصير الكتب
Facebook.com/groups/Book.juice

ج
يا طالع النخل

توضأ محروس ثم خرج من داره بصحبة ابنته هاجر مصحوباً بدعوات زوجته كالمعتاد، استقبله شباب القرية بالتصفيق وربتت أحد شيوخها كتفه مشجعاً، وعلت زغاريد النسوة القليلات الواقفات خلفهم.. شق طريقه مخترقاً الجمع الذي يحبس أنفاسه في حين كان هو يتصرف على غرار لاعبي السيرك المحترفين في وقفته وتركيزه الشديد، ثم أطار نعليه بحركة استعراضية اعتاد عليها ليلهب حماس المتفرجين قبل بدء العرض.. اطمأن على موضع «السلبة» التي يتمنطق بها، ثم تحسس بأصابعه الطويلة الغليظة بلطته وحبله الكتانى المضفر، واحتضن النخلة



كمحبوبته.. كانت تشق طريقها إلى عنان السماء باثنين وعشرين متراً.. رفع بصره فشعر بأنها ترتجف وهُيِّئ له أنها تمد جريدها إلى السماء تـنسب! ربـها، وضع ذيل جلبابه بين أسنانه فكشف عن سرواله القديم المليء بالثقوب، وكل ثقب منها شاهد على ضحاياه من الليف والعرجون الذي أزاحه من نخيل أسوان، فبدا منتعشاً عامراً متلألئاً بعناقيد الذهب..

مرت دقائق والرؤوس كلها مشرئبة إلى أعلى تتابعه وهو يتسلقها بخفة ورشاقة وثقة كمن يسير في وسط أرضه بعد أن صاح بصوت جهير:

- يا ساتر..

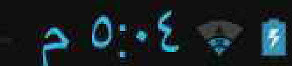
كان يحلو له أن يتأمل الحقول الفسيحة من حوله ومجرى النهر وبدايات الوادي من علٍ، لا يخفض بصره أبدًا حتى لا يفقد توازنه..



يناجي ربه من مكانه ويشعر بدنوِّ السماء منه أكثر فأكثر، موقنًا أن رب الكون ومُسيِّره قد اصطفاه ليُضحي في أيِّ لحظة بأغلى ما يملك.. حياته، مقابل ثمرة لا يُقدِّر قيمتها أحد مثله، دقائق أخرى مرت بطيئة حتى كاد محروس ينتهي من تقليم النخلة وجني ثمارها، متجنبًا ضربها ببلطته في قلبها كيلا تصبح عاقرًا، يقطع بيمناه ثم يعلق بيسراه سُباطة البلح على الحبل ويتركها تنزلق، وبعدها يهبط ببطءٍ تاركًا جسده يهوي لمسافة محسوبة، ثم يتأنى ويتشبث بالجريد..

كانت ابنته هاجر تشعل الأرض حماسًا يشق عنان السماء ليسري في وجدانه، فيرقص قلبه طربًا فرحًا بها، ظلت تغني وتصفق فخرًا بأبيها، وتتمايل بجسدها رقصًا معبرًا على أنغام دقات منتظمة على كفوف شباب قريتها وبناتها، وتدب الأرض بقدميها بشدة، تجلت ابتسامته الناصعة على وجهه الأسمر اللامع

وهو يلقي بنظرة أخيرة خاطفة نحوهم..
فجأة التقطت أذناه صوت فحيح قريب لا تخطئه أذن طالع نخل أبدًا، فالتفت وهو يتحسس بلطته لا إراديًّا، التقت عيناه بفكي ثعبان يطل الشرر من عينيه مزاحمًا الغدر الملتصق به، متراجعًا برأسه الدقيق البيضاوي إلى الوراء استعدادًا لهجومٍ وشيكٍ بسمٍّ زعافٍ يرغي بين أنيابه.. في ثوانٍ فصل رأسه عن جسده بضربة واحدة، ولكن من شدة انفعاله وقوة ضربة بلطته هوى بيده إلى أسفل ناحية السلبة، ففصلها عن وسطه فهوى من علٍ خلف جسد الثعبان، وكأنهما يتسابقان إلى قدرهما المحتوم، محدثًا دويًّا هائلًا غطَّى على صيحات الشباب، فكتم الفرحة في القلوب فجأة، حتى قلبها عويلًا بعد برهة..
انتفض محروس في مقعده بالقطار المتجه إلى القاهرة وهو يتذكر مشهد سقوطه من



ثلث النخلة الأخير على جانبه الأيسر، ذلك السقوط الذي حرمه من طلوعها مرة ثانية، أو حتى الاقتراب منها، فاكتفى بتأملها من بعيد، بعد أن غدرت به محبوبته فهجرها مجبرًا، وأفقدت إحدى عينيه نورها، بينما باتت الأخرى ضعيفة لا ترى إلا أطيافًا مهزوزة، أما ساقه فمن كثرة ما استقر بها من شرائح معدنية غاصت في فخذه فلم يعد يشعر بها، فصارت مشيته لا تخلو من عرجٍ واضحٍ مثلما يخط الطفل أول خط مستقيم في حياته.. أما فمه فقد أصابه اعوجاج طفيف إلى اليسار..

لفح الهواء القادم من النافذة العريضة وجهه ورقبته فارتشف رشفتين من كوب الشاي الذي صار باردًا من جراء استغراقه في ذكرياته، استفسر من جاره عن ميعاد الوصول إلى القاهرة.. فقال بتجهم:

- يا مسهل أدينا داخلين بني سويف.. لسه فاضل ساعة ونص..



أطلق زفيرًا ضعيفًا أقرب إلى الأنين وهو يُصبِّر نفسه قائلًا بهمس:

- هانت..

عامان مضيا حتى الآن على هذا الحادث المريع، نفدت فيهما مدخراته من طلوع النخل على علاجه من تداعيات سقوطه، تربعت ابتسامة استنكار بثقة على شفتيه عندما تذكر حين كان يجلس على شاطئ النيل يُلقي حجرًا صغيرًا كل برهة متأملًا الدوائر التي يُحدثها، ولما صَفَت صفحة النهر لمح أطيافًا ترتعش صورتهم أمامه، فالتفت خلفه ليجد ضابط مباحث القسم وآخر من مباحث أمن الدولة وأمناء شرطة وأشخاص في ملابس مدنية، تبدو هيئتهم وقورة، وملامحهم صارمة كتماثيل نُحتت من جرانيت صلد، ظلوا يدورون حول عشته الصغيرة، ويفحصون مدخلها، ويقيسيون بُعدها عن



النيل، ويستفسرون منه عن أهل بيته، وعددهم، وأعمارهم، ثم وضع ضابط أمن الدولة كفه على كتف محروس، وبنبرة هامسة، كأنه سيخبره بسر دفين قال:

- إنت ابن حلال يا محروس.. الريس اختار بيتك لزيارته في أسوان!

عقدت المفاجأة لسانه ولم ينطق ببنت شفة، حتى كان اليوم الموعود. ألبسوه جلبابًا جديدًا، وأجلسوه على أريكة تمت كسوتها بألوان مبهجة، وحفظ عن ظهر قلب ردوده على أسئلة الرئيس من الضابط الذي أمضى الليلة معه في منزله بعد أن باتوا شبه محددةٍ إقامتهم على مدار يومين، فلما ارتفعت زغاريد النساء المحشورات على جانب العشة، تنبَّه محروس لجمعٍ غفيرٍ يدخل عليه وفي وسطهم رئيس الجمهورية، بدا له أقصر كثيرًا مما يراه على الشاشة. وقف دون أن يبرح مكانه حتى لا يظهر عرجه وفقًا للتعليمات،



صافح الرئيس بفرحة حقيقية وجلس إلى جواره على الأريكة، مضى الرئيس يحتسي شايًا قدمته له زوجة محروس. كان واضحًا أنه معد في فندق قريب وفي أوانٍ غريبةٍ عن العشة، سأله الرئيس الأسئلة ذاتها التي أملاها عليه ضابط أمن الدولة، وبالترتيب نفسه، عن أولاده، وعددهم، ومن أين يدبر احتياجاته الضرورية، وهو يجيب باقتضابٍ خاتِمًا كل إجابة بالعبارة التي أكد عليها الضابط:

- الحمد لله ربنا يطولّنا في عمرك يا ريس..

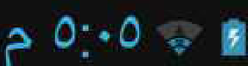
حتى خرج الرئيس فجأة عن النص قائلًا:

- وانت بقى مش بتخاف يا أخ محروس لما بتطلع النخلة؟ دا احنا في الطيارات زمان كنا بنخاف شوية في الأول لما نشوف كل حاجة صغيرة من فوق.. هه هه..

دوَّت ضحكته المبتسرة الشهيرة في أركان العشة، فارتسمت الابتسامة فورًا على وجوه

كل الحاضرين، انتهز محروس الفرصة وكشف عن ساقه المصابة، فارتفعت كاميرا التلفزيون إلى أعلى بعيدًا عنها بإشارة من طرف عين وزير الإعلام، وانسحب للوراء مسجل الصوت، في حين استرسل محروس يشرح للرئيس كيفية سقوطه وعجزه وصعوبات الحياة التي تواجهه بشراسة وضراوة، لمح محروس فجأة التوتر الذي قفز على وجهي رئيس الديوان، ومدير المراسم، كما بانت له ملامح وعيد مؤجَّل على وجه ضابط الأمن، إلا أن الرئيس تجاوز الموقف بأعصاب باردة مستفسرًا من وزير الصحة عمَّا تم بشأن الأخ محروس على حد تعبيره، فاسترسل الوزير الذي تقدم من صف خلفي على عجل، منحنيًا قليلًا وهو يضم كلتا يديه إلى صدره، شارحًا للرئيس تفاصيل الإصابة والرعاية التي لاقاها محروس، والتأهيل النفسي والاجتماعي بعد الحادث، لدرجة أن محروس ذاته صدق ما







يسمعه، وارتاحت قسمات وجهه اطمئنانًا لما قدمته الدولة له من علاج على لسان وزير الصحة، بدلًا من مستشفياتها! وظل على دهشته حتى أفاق منها والرئيس يصافحه مغادرًا، وما هي إلا دقائق حتى انفضَّ المولد بأكمله وعادت العشة إلى ماكانت عليه..

أطفاله يلهون ونصفهم عارٍ، وزوجته تطحن، وهاجر تتزين أمام المرآة كعادتها، إلا هو.. صار له جلباب جديد، وأريكته أيضًا اكتست! ولما ضاقت به الحال، لم يجد أمامه مخرجًا إلا عيد ابن عمومته، الذي يعيش في القاهرة منذ عشرين عامًا أو يزيد.. كل ما يعرفه عنه أنه يتاجر في دخان المعسل، ويزورهم في أسوان مرة كل عام في منتصف الشتاء، حتى يضمن طقسًا رائعًا في أيامه القليلة التي يمضيها وسطهم.. طلب محروس منه في زيارته الأخيرة أن يدبر له عملًا يعيش منه هو





وعائلته.. كانت هيئته قد تبدلت وصار مظهره رثًّا يدعو إلى الشفقة، حتى يظنه مَن يراه شحاذًا بعد أن انطفأ نور وجهه وشاخ من داخله ألمًا، فبدا شيخًا عجوزًا رغم أنه لم يتجاوز الخامسة والأربعين بعد.. ومع ذلك كان عيد مرحبًا، ودودًا، مشجعًا، بل وكريمًا أيضًا..

- في انتظارك يا محروس في أي وقت.. وعنواني في مصر سهل مايتوهش.. اتفضل..

قدَّم عيد له مئتي جنيه وكارتًا صغيرًا يحمل اسمه ولقبه وأرقام تليفوناته، وعنوانًا بحي الزمالك..

ظل محروس يتلفت حول نفسه مئة وثمانين درجة كل عشر خطوات يخطوها بهذا الحي العريق في قلب القاهرة، حتى وصل إلى عنوان قريبه عيد في نهاية شارع 26 يوليو، فألفاه واقفًا أمام مدخل حانوت يبدو صغيرًا من الخارج ولكنه عميقٌ كاليمِّ من داخله،



يمتلئ عن آخره بكراتين التبغ، وتعلوه لافتة خشبية قديمة نوعًا ما كُتب عليها بلون أزرق فاقع: «**مخازن أبو عيدة**». رحب عيد به وأجلسه على قارعة الطريق، ثم انشغل عنه بمحاسبة رجلين حساب المَلَكَين، كان أحدهما عجوزًا طاعنًا في السن، يرتدي جلبابًا رثًّا، ويطلق لحية بيضاء كثة، ويتوكأ على عصا تقاوم رجفة جسده التي جعلت محروس يتابعه بقلق خشية أن يهوي أمامه فجأة. أما الثاني فيبدو أنه فقد إحدى ذراعيه في حادث أليم، حيث بُترت من بداية كتفه..

شرد محروس محاولًا استنتاج كُنْهِهِمَا لكنه لم يفلح، فانشغل بتدخين الشيشة التي أمر له بها عيد، الذي مضى يتحدث معهما بغلظة، وبين الحين والآخر كانا يُخرجان نقودًا من بين طيات ملابسهما البالية، إلى أن صرفهما في ضجر مصحوبين بلعناته وهو يدس رزمة



مالية في جيبه. أقبل على محروس بابتسامة عريضة، كان منتفخ الأوداج كقائد منتصر.. فجأة توقفت سيارة شرطة زرقاء أمام محله فهبَّ عيد واقفًا، ثم هرول ناحية قائدها العقيد حسين عناني، الذي تحرر من سائقه ومخبريه، وتبادلا حديثا وديًا هامسًا، تخلى عيد في نهايته عما كان في جيوبه، وأكمل من حافظة نقوده، ثم ودَّع العقيد بتحية عسكرية بدائية، ودعوات بالبقاء سندًا، وعاد بِخُفَّي حنين يلوي شفتيه وهو خاوي الوفاض تمامًا.

لم يمض وقت طويل انقضى بعضه في وجبة غداء رمَّت عظام محروس، وضاعت غالبيته في ساعات قيلولة في مخزن المعسل، بعثت فيه النشاط حتى اصطحبه عيد بعدها في جولة مسائية في حي الزمالك بسيارة «بيچو» بيضاء، رغم طرازها القديم فقد بدت جديدة، اخترقا شارع حسن صبرى ليرى



مملكة عيد غير المرئية! بائعات ذرة يفترشن الطريق، بائعو زهور يلحون على قائدي السيارات بابتسامة زائفة لعلها تصادف مشاعر متأججة لديهم تبحث عن ورود تصل ودادًا منقطعًا، ورجال أصحاء أقوياء البنية لا يفعلون شيئًا سوى إطلاق صفير متقطع، ويسمحون لأصحاب السيارات بتركها في نهر الطريق غير عابئين بغيرهم.. رجال مسنون يتسولون من المارة في إلحاح.. كلهم بلا استثناء يحيون عيد عند مروره عليهم بإيماءة بسيطة من رؤوسهم، وأحيانًا كانوا يحيونه باسمه:

- أهلًا يا ريس أبو عيدة..

ضحك محروس قائلًا:

- إمتى خلفت عيدة؟!

بادله عيد الضحك وهو يقول بنبرة مَن يخشى الحسد:

- ده اسم الشهرة هنا في مصر.. وعيدة دي الأملة اللي أنا فيها عقبال عندك..

انحرفت السيارة يسارًا في نهاية الشارع ليتكرر المشهد بحذافيره، ثم انطلقت بهما في اتجاه الكورنيش ناحية شارع أبو الفدا حتى اقتربا من الفندق الذي تقبع في قبوه حانة ستيقي الشهيرة، أبطأ عيد من سرعته حتى أوقف السيارة بالقرب من مدخلها، فشاهد محروس بعضًا من روادها يغادرونها وكأنهم يخرجون من باطن الأرض، ثم يقفون أمامها بعيون حمراء منتفخة في انتظار سياراتهم بسائقيها، لاحظ أن وقفتهم غير متزنة وصوتهم عالٍ بلا مبرر، يكاد يسمع حديثهم بالكامل. انشقَّ الطريق فجأة عن رجل طويل، أشعث، يسير حافيًا بجلباب قذر لا لون له، فاحت منه رائحة نتنة عندما تجاوز نافذة سيارتهم، كان ينادي مجهولًا وكأنه يحادثه

في أمر مهم ثم راح يسبه محاولًا ضربه، فيطوح بكلتا ذراعيه في الهواء..

لم يقوَ محروس على مقاومة فضوله، فالتفت مأخوذًا بما يراه، متابعًا المجذوب باهتمام، فشاهده وهو يلتوي على نفسه ويسعل بشدة، وكأن روحه ستفارقه ويعطس حتى سال المخاط من أنفه وتعلق بشفتيه فلعقه مبتسمًا في بلاهة.. كان يطبق بكلتا يديه على إناء من صفيح صدئ حتى لا ينفر الناس من ملامسة يده فيضعون صدقاتهم به وكأنهم يلقونها قربانًا ليفروا هاربين من كآبة المنظر وعطن الرائحة.. عندما عاود المجذوب المرور بجوار سيارتهم في طريق عودته، تعمَّد رجَّ الإناء، وأمال فوهته العريضة مبرزًا أوراقًا من فئة العشرة والعشرين جنيهًا بوضوح، وأحدثت العملات الفضية رنينًا تلقاه أبو عيدة بابتسامة رضى عن صبيه، فحيَّاه بدقتين من نفير سيارته رقص معهما المجذوب يَمنة ويسرة

رادًّا التحية بأحسن منها!

ظل محروس يُحوقل ويوحد الله ويضرب كفًّا بكف، خُتمت الجولة المسائية بمشهد المجذوب، ولم يكن ختامها مسكًا، فقد بُهت الذي هجر فقر الجنوب فهاجر شمالًا ليجد أبو عيدة يرسم له مستقبلًا تعيسًا، مظلمًا، كوجهه الأسمر الغطيس، وكأن غضب الله قد حلَّ عليه وحده، قفز إلى ذهنه مشهد أبو عيدة وهو يتأمل عاهته عندما التقاه في أسوان ودس يده في جيبه ليعطيه مبلغًا من المال، فكان أشبه بتاجر رقيق يتفحص عبدًا في سوق النخاسة، قال محدثا نفسه..

- يالله! هل سينتهي بي الحال متسولًا؟!

أخرج أبو عيدة علبة السجائر «الدانهيل» العريضة، وأشعل سيجارته الطويلة بعد أن وضع مبسمه الذهبي فيها، وظل يرمقه بنظرة فاحصة، متأملًا عاهته المستديمة، كمن

يستملح لوحة في متحف، ثم نفث دخان سيجارته من النافذة، قائلًا دون أن ينظر إلى وجه محروس الغارق في الظلام:

- إنت فقري وغشيم.. الناس دول دكاتره.. إيراد الواحد فيهم بيوصل 150 جنيه على الأقل في اليوم وفي الأعياد والمواسم إضرب في اتنين بالمستريح..

انحدرت دمعة ساخنة ببطء على وجنة محروس، كانت قد ظلت حبيسة منذ أن ترك داره في أسوان، وقال بقلب منكسر مطرقًا رأسه:

- أنا كنت أشهر طالع نخل في بر مصر يا ريس و...

صمت فجأة كمن ابتلع الكلام بسرعة حفاظًا على كبريائه، ثم ترجل من السيارة على مهل، كان يشعر باختناق مفاجئ فأطلق لرئتيه العنان في الهواء الطلق وهو يجاهد ليحبس دموعًا أخرى على وشك اللحاق بتلك التى

انحدرت منذ قليل.. ربَّت أبو عيدة كتفه قائلًا:

- إركب العربية دلوقت والنهار له عنين..

ثم ألقى بما تبقى من سيجارته وهو يدهسها بحذائه بعصبية حتى فرمها، ومضى في طريقه محييًا بعض رجاله الرابضين أمام الحانة يتولون أمر سيارات روادها، وسرعان ما طوى ظلام الشارع سيارته القديمة البيضاء.

*****

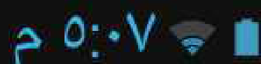
على عجلٍ أنهت مريم عملها بالصيدلية التي تعمل بها منذ تخرجها في الجامعة، مستسمحة الصيدلي عازر واصف، صديق والدها القديم، في الانصراف مبكرًا. كانت تنظر إلى ساعتها كل ربع ساعة تتعجل موعدها الذي تنتظره منذ أسابيع طويلة، ولم تُطق البقاء في الصيدلية حتى يحين وقته، فغادرت متسكعة في شارع قصر النيل. وقفت

شاردة أمام واجهات المحلات لا ترى منها شيئًا حتى اقتربت الساعة من الرابعة عصرًا، فاختارت ركنًا ظليلًا أمام «جروبي» في ميدان طلعت حرب، انتظارًا لقدوم عبد الوهاب.. مضت نصف ساعة ولم يجئ وهاتفه لا يزال مغلقًا، دخلت إلى المحل واختارت طاولة كاشفة للميدان. ظلت قابعة خلف الواجهة الزجاجية بعينين قلقتين تتنقلان في دورة مضطربة بين ساعتها وهاتفها؛ لتعود فتراقب المارة بالطريق، وقد اتكأ القلق على قلبها وراحت الوساوس تتخطفها.. بعد مرور ساعة ونصف، طلبت فاتورتها لتغادر يائسة محبطة. اصطدمت أصابعها في طريق بحثها عن حافظة نقودها بجواز سفرها القابع في قعر حقيبتها مطويًّا على استمارة هجرة إلى كندا بعد أن ملأت بياناتها بالكامل، بينما كانت الاستمارة الأخرى فارغة تنتظر عبد الوهاب ليملأ فراغاتها.. ثمانية عشر شهرًا الآن منذ أن

التقت عبد الوهاب لأول مرة في منزلهم، لم تكن تكترث كثيرًا للولائم المنزلية التي يقيمها والدها أحيانًا لبعض معارفه، إلا أن تلك الليلة لاحظت اهتمامًا مبالغًا فيه بالضيوف من جانب زوجة أبيها فقط، فقد كانت الوليمة على شرف عائلة صديق العائلة حمدي عباس الشهير بـ «أبو عدنان»، الذي عاش سنوات كثيرة من عمره في المملكة العربية السعودية، أغلبها في مدينة الرياض، وهو شريك منير وزوجة أبيها في محل بيع ملابس المحجبات، وكما كان الشاهد الأول على وثيقة عقد زواجه من منيرة بمسجد السيدة زينب، كان هو سبب معرفته بها أيضًا، فسهل له زواجها لمعرفته الوثيقة بعائلتها..

الوليمة اليوم كانت بمناسبة عودة عائلة «أبو عدنان» من الخليج للاستقرار في القاهرة بصورة نهائية.. لم ترُق لها زوجة أبي عدنان





كثيرًا، كانت من تلك النوعية التي تشبعت بثقافة أهل الخليج فقلدتهم تقليدًا فجًّا مبالغًا فيه لا ينم عن أصالة، فلا أصبحت واحدة منهم، ولا احتفظت بمصريتها.. كانت تحاول محاكاتهم في لهجتهم وعاداتهم وهي تُفرط بتبذير في مسح هويتها طواعية واختيارًا حتى صارت مسخًا.. حضرت يومها ترتدي عباءة خليجية وتزين ذراعيها بالذهب وكأنها سرقت لتوها محلًّا بالصاغة فارتدت كل ما استطاعت حمله..

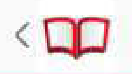
لم تتوقف مريم عند أبي عدنان كثيرًا، فهو لا يتحدث إلا عن عمله، والأشخاص بالنسبة له ليسوا سوى أرقام، كما كان ينتابها هاجس بأن أباها لا يحبه من داخله، لكنه مجبر على تقبله بسبب المشاركة في التجارة، أما ابنه عبد الوهاب فألفته مليح الطلعة، حلو الحديث، رغم أنه قليل الكلام، شديد الخجل، كان بدينًا، يحمل وجهًا طفوليًّا، أبيض البشرة، تحمرُّ

وجنتاه عند أقل كلمة إطراء أو مديح.. وعلى الرغم من تحرر مريم وانطلاقها وتذوقها الحياة بملعقة ترتشف منها باستمتاع، إلا أن غموض شخصيته بدا لها براقًا فجذبها بلا مجهود يذكر، مثلما تنهار السدود فجأة تحت وطأة فيضان.. اجتاحها عبد الوهاب بلا سابق إنذار، وهيأت نفسها لاجتياحه دون أن يدري، كان قد درس الصيدلة مثلها، وبدا لها دائمًا مهتمًّا بعالمه الداخلي، حذرًا نوعًا ما، متحفظًا كثيرًا، ولكنها اكتشفت بعد توطد علاقتهما أنه لا يميل أبدًا إلى المحاولة والتعلم من الخطأ مثلها، وإنما يكتفي بالمشاهدة. يسأل قليلًا كمن يرى جانبًا واحدًا من الصورة، ويكتفي به ليُكوِّن رأيه النهائي فيها، إلا أن عاطفته الجياشة وقدرته على قرض الشعر غزلًا فيها شدتها إليه أكثر، فقد كان مختلفًا عمَّن تراهم وتتعثر بهم في طريق حياتها، ثم تلاقت

إرادتهما على فكرة الهجرة إلى كندا بحثًا عن مستقبل أفضل، وبعد أن تعلقت به بدأ يضايقها قليلًا تردده في قراراته، ورغبته الملحة في الخصوصية، ثم إلحاحه المفاجئ عليها في الآونة الأخيرة لارتداء الحجاب، فقررت أن تواجهه بحقيقة ديانتها في أقرب فرصة، لاحظت أنه لا يعيش الحياة ولا يخوض فيها مثلها، وإنما يتأملها عن قرب أحيانًا وعن بعد غالبًا، يحتاج إلى قائد ومرشد دائمًا، فبدا لها كإنسان آلي بعد فترة، ولكن كان الوقت قد تأخر كثيرًا؛ فقد هامت به عشقًا، حتى عندما تبينت أن التجربة بالنسبة له عدو لدود يتربص به عند أول محاولة فيتجنبها دومًا..

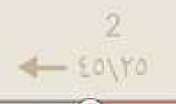
هزَّت رأسها ضيقًا محدثة نفسها:

- سيتغير في كندا.. المجتمع هناك مختلف، وأولادنا سيغيرون من طباعه السلبية.. الحياة جميلة وهناك شمس تشرق كل يوم ستمنحنا



الأمل، وحتى لو كان عبد الوهاب أعمى فاته التحديق في قرصها الجميل الساطع، فلابد أن يشعر بالدفء يومًا ما..

أشعلت سيجارتها وهي تمضغ أفكارها ببطء لتعيدها مرة ثانية مفعمة بالأمل متخذةً قرارًا بمد فترة الانتظار عشر دقائق أخرى. ظلت السيجارة تحترق حتى لسعت أناملها فانتفضت، وجدته أمامها فجأة، بدا لها كشبح مخيف وهو يرمقها شزرًا بعد أن طلب منها مؤخرًا الإقلاع عن التدخين نهائيًّا فلم تستجب.. اتسعت عيناها دهشة وأطفأت سيجارتها بأصابع مرتعشة، غابت البراءة لأول مرة عن وجهه وبدت كذكرى قديمة من ماضٍ بعيد.. نسيت تأخره عن موعده بنحو ساعتين، كان مجهدًا وقد فقد كثيرًا من وزنه وترك لحيته تنمو على سجيتها بغير تهذيب ولكنها أبت أن تكتمل؛ فقد كان شبه أمرد، فبدت




كُجزُرٍ منعزلة من شعيرات طويلة بعضها ملتوٍ على نفسه، معقد التركيب كلوحة سيريالية لفنان مبتدئ يحاول البداية من حيث انتهى آخرون عديمو الموهبة!

- إيه اللي حصل؟!

قالتها بنبرة قلقة، متوجسة، مغلفة ببعض الحنان لتلطف الحديث..

رد ببرود وهو يتلفت يمنة ويسرة، متململًا في جلسته، ضيقا بالمكان الرحيب:

- مفيش.. اتأخرت في الشغل و بطارية التليفون فضيت..

قالها ثم تجنب النظر إلى عينيها، فتساءلت:

- أنا قصدي إيه اللي مغيرك من فترة، انت بقيت عصبي وأنا..

قاطعها بإشارة من يده لتصمت ففعلت، ثم وضع رأسه بين كفيه مغمضًا عينيه في ضيق وهو يجز على أسنانه، فخرج صوته مكتومًا، مترددًا:



- أنا تعبان يا مريم خلينا نأجل الخناقة لوقت تاني، كنتي عاوزاني في إيه؟!

- احنا موش بنتقابل من شهور طويلة، مشفتكش إلا مرتين مرة منهم بالصدفة في الأجزاخانة.. أنا مش عاوزة اتخانق.. بس عاوزاك تفهمني.. أنا قلقانة عليك..

قطع حديثها تلك المرة النادل وهو يسأله عما سيشربه، فطلب «ينسون».. لاحظت مريم أنه يحيي شابًّا ملتحيًا يجلس على مقربة منهما..

- مين ده يا عبد الوهاب؟

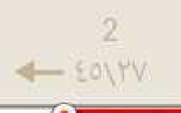
أجابها بعدم اكتراث:

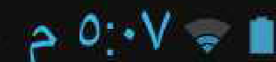
- معرفوش..

أطلت الدهشة من عينيها، وقبل أن تسأله عن السبب في تحيته، كان يردف وقسمات وجهه تتخفف من ضيقها شيئًا فشيئًا:

- لحية تحيي لحية، ده أخي في الإسلام..

صاحت مداعبة إياه:



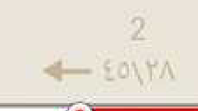


- يا سلام! طب افرض إنه مسيحي.. حتعرف ازاي؟!

عاد إليه التجهم على عجل وهو يرد:

- أعوذ بالله يا شيخة بلاش السيرة دي..

امتعضت، وشعرت بغصة ابتلعتها على مضض. ياليتها قالت له ديانتها في أيام الغرام الأولى، كان ودودًا، لطيفًا، سمحًا، كانت تخشى دومًا أن تفصح له عن ديانتها الحقيقية، تحوم حول الموضوع كالفراشة ولكنها تتجنب السقوط في النار فتتراجع في آخر لحظة، بداخلها هاجس أنها ستكون خطوتها الأخيرة، رغم ما كان يبديه من مودة، وترديده دائمًا وأبدًا عبارته الشهيرة على لسانه، لما عرف من أبيه أن والدها قد غيَّر ديانته ليتزوج من منيرة.. فكان يقول لها باستمرار: «**حتى لو كنتي قبطية كنت حاحبك وحتجوزك**».. كان لجملته تلك وقع جميل على أذنيها،



فاستراحت لمدلول العبارة، ولم تتجاوزها بالبوح أبدًا بسرها، فتركته على ظنه بأنها أسلمت مع والدها؛ فهي لم تكن تدري يومًا أنه سينقلب مئة وثمانين درجة، وكأنها كانت تحلم بفارس فاستحال الحلم كابوسًا قتل فيه رجلٌ شرير مُقنَّعٌ فارسَها، وأطلَّ عليها من خلف القناع عبد الوهاب بوجهه المتجهم؛ ليذيقها مرارة نابعة من قلب أسود مريض..

تظاهرت بالانشغال بالعبث في حقيبة يدها، ثم بحركة مسرحية قالت:

- **اتفضل يا سيدي..**

قدمت إليه استمارة الهجرة وقلمًا وهي تبتسم بمودة هاتفة:

- **حنلاقي شغل بسهولة؛ تخصصنا مطلوب في تورنتو.**

نحاها جانبًا بلا مبالاة وكأنها جريدة قديمة فرغ لتوه من قراءتها، اتسعت عيناها مستفسرة، فرد بالنبرة الباردة نفسها:

- موش دلوقتي يا مريم ولا في المكان ده..

زحفت بأناملها الرقيقة نحو كفه وهي تبتسم مُسرِّبة بعضًا من أسلحتها الأنثوية، مهيئة إياها في وضع الاستنفار لمواجهة نذر حرب باردة لاحت بوادرها على وجهه المتجهم، فسحب عبد الوهاب يده بحركة مباغتة وهو يزمُّ جبهته أكثر قائلًا بعصبية:

- احنا في مكان عام يا مريم.. اختشي!

همست له بعينين مترددتين وهي تضغط على عقلها الذي صار لينًا في مقاومته بعد أن تغلبت مشاعرها عليه:

- طيب تحب نروح البيت؟

لم يرد وشرع في احتساء «الينسون» الذي كان شديد السخونة، فاحتضن كوبه بكفه ولم يُجبها، بل ظل ينظر إليها بوجوم، وخياله يلتهب بنزواته معها في فراش أبيه بشقتهم القديمة في شارع قصر النيل، أعادت على

مسامعه اقتراحها بحرج وتردد واضحين، فلم تكن تحبذ لقاءاتهما بتلك الشقة أبدًا، ولكن غايتها الآن أن تعيده إليها بأي وسيلة.. صار كوبه باردًا فارتشف نصفه دفعة واحدة، ثم اكتفى بأن رفع أحد حاجبيه مستنكرًا، ونظر إليها نظرة غريبة، شاردة، بدت لها مختلفة، وكأنها مغلفة باحتقار مستتر. حاولت طرد الهاجس من داخلها فلم تفلح. توترت أكثر، وشعرت بالقلق المفعم بالانكسار انتظارًا لإشارة من عينيه تستعيد بها كرامتها التي انفرطت، وكبرياءها التي تبعثرت فأبى أن يفعلها.

ظلا صامتين حتى حام طائر القلق فوقهما وظللهما بجناحَي الضجر والتأفف، فغادرا المكان بعد نصف ساعة، ومضى كلٌّ منهما في اتجاه. كان عبد الوهاب يسير في خط متعرج بسبب شروده وهو لا يلوي على شيء، منذ أن انتظم في دروس دينية بمسجد قريب من

منزله وهي تأخذ جُلَّ وقته، ولم تمضِ فترة طويلة على انتظامه فيها حتى اختاره الشيخ مع أربعة من أقرانه لحضور لقاءات أكثر عمقًا وتزيدًا بمسكنه، فتبدلت حاله حتى صار يدور في فلك معلمه، وبدأت تفسيرات النصوص الدينية التي يقرأها في كتيبات وزعت عليه، تجبره على التفاعل مع واقعه بالطريقة التي تفرضها على تفكيره مقولات أمير جماعته التي انضم إليها هربًا من مجتمعه، فصار مثل من فتح باب حجرة صغيرة مغلقة بلا نوافذ ليدلف إلى أخرى مماثلة ولكن بنافذة وحيدة ضيقة، لا يرى منها إلا ما يُسمح له به، فهجر مريم تدريجيًّا وصار يؤجل لقاءها ويغلق هاتفه إلى أن عدل عن فكرة الهجرة إلى كندا بعد أن بدأت أحلام السفر إلى صنعاء تنضج على مهل في عقله، وعظَّم شيخُه من أمر سفره لمعاونة الإخوة في معسكرات الجهاد

هناك، ولأن والده رباه على ألا يكون له رأي
فلم يقله يومًا ما، فقد كان طيِّعًا، سهل
التشكيل والتكوين، وتحوَّر في زمن قياسي لا
يتجاوز بضعة أشهر إلى شخصية تعيش
داخل قوقعة هشة تحمي نفسها بقشور
ورقائق وتتهرب من مسؤولياتها، بات دائم
الشعور بالقلق والإحساس بالذنب مع أنه لا
يفعل شيئًا يستحق! ألقى بنفسه في حضن
شيخه مثلما كان يرتمي في حضن مريم،
يتلقى ما يقوله أميره له ويؤمِّن عليه ولا
يناقشه أو يجادله.. كان يلتقط شفتيها كطفل
يلتقم ثدي أمه، يبحث عنه أولًا بغريزته ثم
يغلق عينيه ويروح في شبه إغماءة وهو
يغمرها بقبلاته ولا يرى وجهها من فرط
اندماجه، كان يجثم عليها كل مرة فجأة لينال
منها بسرعة في دقائق معدودات، وهي لا
تتجرد من ملابسها أبدًا
فلا يعبأ بها، يتلوى فوقها حتى يهدأ، ثم يصير





غارقًا في منيه، ويتمدد بجوارها يتمسح فيها كقط أليف يلتقط أنفاسه.. يعلو صدره ويهبط في انتظام وسرعة بعد أن سكن الألم الذي كان ينخر في عظام ظهره كالسوس، بينما تحملت هي عن طيب خاطر تأجج شهوتها من جراء أفعاله حتى لا تفقد عذريتها تحت وطأة رغبة جانحة..

فجأة يصم أذنيه بحركة لا إرادية أثناء سيره كي لا يسمع صوت والده ينعته بالفشل منذ نعومة أظفاره.. تساءل مع نفسه: «**كيف لطفل أن يولد فاشلا؟**». اعتقد دائمًا أن صوت أبيه هو الحقيقة المطلقة، وترسخت العقدة أكثر بداخله عندما ناقشته مريم مرة في الدين، كانت تنتقد التشدد في تفسير النصوص وترى أنها مجموعة أقوال ينسبها الإنسان زورًا إلى الأب الأعظم.. إلى الله؛ لتصبح حقيقة مطلقة.. لماذا اختارت مريم عبارة الأب الاعظم؟! لم

يجد إجابة حاضرة.. قفزت إلى ذهنه مقولة شيخه إن التفسيرات التي يلقنها لهم هي الحقيقة المطلقة لصحيح الدين.. هي تعاليم الله التي لا تجوز مخالفتها أو تقبُّل تفسيرات أو اجتهادات غيرها.. **إياكم والاجتهاد وإعمال العقل في التفاسير فهو من عمل الشيطان**..

قال محدثًا نفسه: «**هل ما قاله أبي حقيقة مطلقة؟ أأنا فاشل؟**». صرخ بأعلى صوته رافضًا، مستنكرًا، فالتفت نحوه بعض المارة، لكنه لم يعرهم اهتمامًا يُذكَر وعاد يحدث نفسه همسًا: «**لا.. لا.. لست كذلك، أنا فقط لم آخذ فرصتي كاملة، بل لم أحصل عليها يومًا.. الكل يمتدح أبي وثروته ومهارته بينما أنا مجرد تابع لاسمه، أنا مجرد بضعة حروف قيمتها فيما يليها من اسم ولقب. لم يسألني أحد ماذا أريد أن أكون وكأنني امتداد طبيعي واتجاه إجباري في مسار أبي..**»

الوحيد الذى أثنى على طريقة تفكيره كان



شيخه، مع أنه لم يقل شيئًا، مكتفيًا بهز رأسه مؤمِّنًا على كلامه.. لا بد أنه رأى فيه ما لم يكتشفه الآخرون بعد! مرت صورة والده بخياله وهو ينهره، فبصق لا إراديًّا ثم تلفت خلفه خجلًا من أن يكون أحد قد رآه..

دمعت عيناه ولم تسل دموعه، أبطأ من مشيته والتفت خلفه لعله يرى مريم مرة أخرى فلم يستطع، كانت بعيدة رغم أنها كانت لا تزال واقفة أمام مفترق الطرق بالميدان تتلفت حولها، لم تكن تعرف إلى أي طريق ستقودها قدماها، فتسمرت مكانها وقد سكن الحزن على ضفاف جفونها وظلت عيناها باكيتين ولكن بلا صوت.. تمامًا كصمت القبور.

***

تسربت موسيقى الجاز في رفق إلى جنبات الحانة حتى علت نوافيرها فبدأت الروح تنتشي طربا بعد أن دارت الرؤوس من دوران

الكؤوس.. جلس الممثل السينمائي البدين الذي أفل نجمه منذ سنين في ركنه بأقصى يسار الحانة كالمعتاد؛ مثل أسد عجوز يكاد يتعرف عليه قليلون، يلفت نظرهم وهو يداعب ستيقي كل فترة بماصة بلاستيكية طويلة وكأنه يبارزه بها.. بينما كانت طاولة مصطفى بك الدمنهوري، كعادته دائمًا، تعج بأطياف مختلفة من المجتمع؛ فهي أشبه بحانة مصغرة لمن يرغب في الجلوس إليها، تكفيه ابتسامة ثقة لصاحبها وبعض كلمات المجاملة والإشادة بعائلته العريقة، ولا بأس من مشاركة متقطعة في أحوال الساسة والسياسة، ومدح للنظام الملكي الذي يتشدق به الدمنهوري وكأنه أحد أفراد الأسرة العلوية، كل ذلك لكي يحصل ضيفه على بضع كؤوس مجانية من مشروبه المفضل، وينصرف وهو يدس في جيبه الكارت الشخصي لمصطفى بك، والذى لا يحمل سوى اسمه ولقبه معتبرًا

نفسه لا يحتاج إلى تعريف أكثر من ذلك، كان يعيش في بحبوحة تتكئ على تاريخ بعيد لأسرة إقطاعية كونت ثروة عقارية لم تتحول بعد إلى بقرة هزيلة، فلا تزال تدر عليه دخلًا مقبولًا، ولكن صحته لم تعد تواكب قدراته المادية، فاكتفى بجوقة تلتف حوله في وقته الضائع يستمتع بسقياها ثم يودع الحانة عند الغروب.

كان ستيقي في فترة العمل الصباحية، كما يسمونها بالحانة رغم أنها تنتهي قرب الثامنة مساءً، يكتفي بمتابعة العمل من بعيد، لا يكاد يغادر موقعه كساقٍ خلف البار، ولا يقترب من أي طاولة إلا ما ندر، أجواء الحانة في تلك الفترة تشبه كثيرًا المطاعم الأُورُبِّية، فأغلب المترددين من الطبقات الراقية يتناولون طعامهم وقليلًا من الشراب على أنغام موسيقى خفيفة غير صاخبة، يمر ستيقي

أحيانًا بين الطاولات وبإشارة بسيطة من عينه كانت الموسيقى تتغير كل عشرين دقيقة على ذات النمط الأمريكي المعتاد، فيخيل لمن يرتاد الحانة لأول مرة أن روادها يجلسون منذ أيام طويلة ملتصقين بمقاعدهم من رتابة النغمات وطولها وتقطعها ودخان السجائر الذي يشكل سحبًا كثيفة تكاد تحجب الرؤية عنهم..

«لولا ثورة يوليو كان زمانك بتسقي الأرض عندنا في العزبة البحرية..».

قالها الدمنهوري بك مستبقًا كلامه بضحكة عالية، ومداعبًا ستيقي كعادته أثناء عودته من دورة المياه التي بات يتردد عليها كثيرًا رغم أنه يشرب كأسًا واحدة من النبيذ المخفف بالماء، لم يكترث ستيقي لدعاباته مكتفيًا بابتسامة مقتضبة، ثم ربَّت كتفي الرجل وكأنه يدفعه للعودة إلى طاولته في ركنه المنزوى بعد أن لمح «أبو عدنان" صديقه

اللدود يدخل إلى الحانة بصحبة فتاة متوسطة الجمال، فائرة الجسد، تبرز بعضًا من مفاتنها ببجاحة لتجيب عن تساؤلات الناظرين عن سبب اصطحابها لرفيقها العجوز الدميم، كانت قصيرة نوعًا ما، فدارت على قصر قامة أبي عدنان الواضحة، فهو بدين، أسمر البشرة، على مشارف السبعين، شعره مجعد يغزوه الشيب بكثافة ولكن في عشوائية، يرتدي بدلة لامعة مثل حذائه وقد تخلى عن رابطة العنق كعادته، صافحه ستيقي ببرود هامسًا في أذنه، متظاهرًا بأنه يحتضنه:

- عاوز تقعد فين؟

أشار أبو عدنان إلى أقصى يمين الحانة متخيرًا ركنًا معتمًا مع فتاته التي لاقت ترحيبًا فاترًا من ستيقي باعتبارها زبونًا عارضًا لن يتكرر حضوره، بدا النادل منتصر متضررًا،

يبتسم بالكاد وفي استنكار واضح، متعمدًا
إطالة النظر للجالسين كلما قدم مشروبًا
لطاولة
أبي عدنان بعدما لاحظ ما يختلسه الكهل
الممتلئ بالمال من حيائها بأنامله وهو
يتحسس نصفها السفلي بكفه الخشنة ليسرق
لحظات من زمن فات، انتبه ستيقي وهو
يصوب بصره تجاه الطاولة ويتفرس ملامح
منتصر، ثم أشار بعينه إلى النادل زين ليحل
محله فورًا، وأمر بمشروبين تحية منه لطاولة
أبي عدنان الذي رفع كأسه عاليًا مع فتاته
لتحية ستيقي الذي اكتفى برفع كوب ماء
ليبادلهما النخب، في حين كانت عيناه تنظران
شزرًا صوب منتصر الذي مضى في طريقه
إلى المطبخ حيث سيقضي بقية «نوبتجيته»
الصباحية فضلًا عن خصم نصف البقشيش
من نصيبه كعقاب منتظر على استيائه من
مشهد خاف أن يتكرر مع شقيقته التى تقارب

الفتاة في سنها ومظهرها، أو هكذا هيئ له من كثرة ما اقترب ورأى!

تخترق الحانة عمقًا واجهة زجاجية عريضة لا يزيد ارتفاعها على متر ونصف وكأنها حفرت داخل الجدران الخشبية القديمة، ويمكن لمن يجلس إلى جوارها أو بعيدًا عنها بطاولة واحدة أن يشاهد عشرات من زجاجات الخمور القديمة مختلفة الأشكال والأحجام، والتي كانت تقدم في الثلاثين سنة الماضية، بعضها تغطيه الأتربة ومعظمها عفى عليه الزمن.. **لا شيء يتغير في هذه الحانة أبدًا.. المقاعد، المناضد، الأطباق والكؤوس.. الطعام نفسه، المشروبات نفسها، حتى ستيقي كما هو لا يظهر عليه السن مثلنا..** كان مصطفى الدمنهوري يتحدث وجوقته تستمع لحديثه متصنعة الاهتمام بأعين منبهرة بعد أن امتلأت بطونها، فجأة علت صرخة مكتومة

من سيدة وقور تجلس بجوار الواجهة الزجاجية على طاولة مرتفعة تحتلها صديقات بهيرة هانم الدرمللي كل ثلاثاء، كلهن تجاوزن الستين بكثير وقاربن السبعين، أكثر من عشر سيدات بعضهن بشعر مستعار، معظمهن لا يفرطن في تناول الخمور، قليلات هن اللاتي لا تظهر سيجارة طويلة بين أصابعهن، الأناقة البسيطة بألوان فاتحة، ومساحيق الوجه الثقيلة سمة أساسية لهن جميعًا، بهيرة الدرمللي تتفق مع ستيقي على أن يقدم فواتير منفصلة لكل واحدة من صديقاتها، هي ترتب اللقاء وتؤكد عليهن الموعد وتتصل بستيقي ليحجز الطاولة فقط ثم تسدد فواتيرها دفعة واحدة كل شهر يتولى ستيقي جمعها لها، وعندما تقبض معاش زوجها السفير السابق بالخارجية تناول ستيقي قيمة ما شربته وأكلته على مدار الشهر وإكرامية سخية تحفظ بها ماء وجهها أمامه لسماحه

بتأجيل السداد..

وضعت السيدة المفزوعة كفها على فمها خجلًا عندما حاصرتها نظرات الرواد، كانت قد لمحت فأرًا صغيرًا يمرق من خلف الزجاج ليختبئ وسط زجاجات الخمور في سرعة البرق، وكأنه لا يريد أن يراه أحد عن قرب وإنما يكتفي بومضات يمرق فيها أمامهم، ورغم أن الفأر لن يتمكن من الخروج إليها من خلف الحاجز الزجاجي إلا أنها لم تتمالك نفسها خوفًا وتقززًا، ضحك الدمنهوري بك معلقًا بصوته الرخيم الهادئ، مبتسمًا ابتسامة خبيثة كثعلب عجوز وهو يشرئب بعنقه ناحية طاولة السيدات:

- الفار ده موجود هنا من زمان، طول عمري باشوفه، بس اللي شافته الهانم ده ابنه الصغير..

ثم أردف وهو يميل برأسه ناحية جوقته



خافضًا صوته قليلًا:

- يظهر إن الفار الكبير مات.

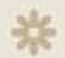
***

عصير الكتب
Facebook.com/groups/Book.juice

3
القهر

حلقت طائرة ورقية جميلة مزخرفة عاليًا بعد أن أفلت خيطها من بين أصابع صبي صغير حتى استقرت يائسة، بائسة، ملتوية على نفسها بين فرعين شائكين أعلى شجرة موفورة، وقف الطفل يتأملها بوجه حزين، متجهمًا تتأرجح ملامحه البريئة بين الأمل واليأس كلما هزتها الرياح قليلًا، كان محروس يتابعه عن بعد فلما استحكمت خيوطها حول الأفرع هبَّ واقفًا، مقتربًا منه على استحياء وهو يعرج في مشيته، تلاقت أعينهما، كادت مقلتا الصبي تنطقان: «**هل ستفعلها؟!**»، بينما محروس يجيبه بوجه يصاحبه الوجوم كظله، وهو يقطع ببصره





طولًا جذع الشجرة الضخم، حتى وصل إلى نهايتها، فأغمض عينيه بشدة خشية السقوط!

ظل محافظًا على المسافة بينه وبين الصبي لا يتجاوزها أبدًا؛ فلم يعد في مقدوره أن يفعل له أكثر من ذلك، ثم عاد بخفي حنين إلى دكته الخشبية أمام مدخل العمارة القديمة التي تفصلها عن حانة ستيقي مدرسة ابتدائية تحتل قصرًا بديع المعمار، تحولت جدرانه المزخرفة إلى مستقر عشوائي للوحات حائط كئيبة المنظر، وأسهم خشبية مفلطحة تدل التلاميذ على فصولهم، بينما تراخت قدرة واجِهَتِهِ على الإبهار تحت وطأة لافتات ضخمة تحمل اسم المدرسة والمديرية التعليمية والمحافظة التابعة لها.. لم يكن يصدق نفسه، فحتى وقت قريب كان تائهًا، حائرًا، لن ينسى يوم جاءه أبو عبدة في حماس منقطع النظير قائلًا:







- **والله انت ابن حلال يا محروس..**

ثم ألحقه بعدها في وظيفة مساعد بواب، ومع الأيام أرسل محروس في طلب زوجته وابنته هاجر وأطفاله الذكور الصغار، ولم تمض أسابيع أخرى حتى أجبر هاجر على ارتداء الحجاب ممتثلًا لنصيحة من أبي عيدة، الذي جحظت عيناه عند رؤيتها لأول مرة، وهي تحسر طرف جلبابها المبتل بين فخذيها، معاونة أبيها في مسح درج المدخل قرب الفجر.. فقال له محذرا:

- مصر غير أسوان يا محروس.. الناس هنا ديابة..

كلمات قليلة نطق بها أبو عيدة كانت كفيلة لإثارة هواجس كثيرة في مخيلة محروس، فغطى شعرها وجسدها رغمًا عنها؛ ليطمئن قلبه، مانعًا إياها من الخدمة في بعض الشقق زيادة في الحيطة والحذر، خاصة أنها مندفعة،



لا تحسن تقدير الأمور، رغم ما كانت تلك الخدمة تدره من دخل يومي محترم.

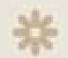
اكتشف محروس مع الوقت أنه لا يعدو سوى دوبلير للنوبي البواب الأصلي للعقار، يظهر بظهره دائمًا ويؤدي الأعمال الصعبة والخطرة، ويظن المتفرجون في النهاية أن البطل قام بها كلها، فهو يمسح الدرج كل ليلة، ويرفع صناديق القمامة، وينظفها، ويغسل السيارات الرابضة أمام البيت، بل ويجتهد دومًا ليحجز لها مكانًا مستعينًا بقوالب طوب ضخمة وإطارات فارغة، ويتلقى قائمة طويلة بطلبات السكان من النوبي ليبتاعها من محلات بقالة قريبة، ثم يجلس دقائق قليلة أمام المدخل ليلتقط أنفاسه اللاهثة قبل أن يطل عليه النوبي ببشرته السمراء اللامعة وهو يرفل في جلباب أبيض، نظيف، ناصع، ويتعمم بغطاء رأس ضخم، يزيده هيبة، فيعيد إليه ذاكرة الدوبلير؛ ليتوارى بعيدا فى غرفته الضيقة





أسفل الدرج، والتي يضطر لخفض رأسه عند دخولها، بينما يتفرغ النوبي لتلقي عبارات الشكر والإشادة بحسن سير العمل، وإحصاء الإكراميات الواردة من السكان، ليلقي بالفتات إلى محروس الذي تكفيه بالكاد كي يقيم أَوَدَهُ بها.

ومنذ أن أقنعه أبو عيدة بتربية ديوك بحجرته، وهو يوليها عناية خاصة أكثر من صغاره، يشرف على مأكلها ومشربها وينهر أطفاله إذا ما حاولوا اللهو البريء معها خشية أن يصيبوها بأذى، في يوم أمسك طفله بعصى صغيرة، وراح يوسع بها أحد الديوك ضربا مستغلا غياب أبيه، وكأنه ينتقم من الطائر المحرم عليه اللعب معه، والذي يستحوذ على اهتمام أبيه أكثر منه، ولما شاهده محروس حال دخوله الغرفة بغتة قذفه ببراد الشاي الساخن فظلت بقعة سوداء



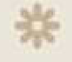
على رقبة طفله، شاهدة على قسوة لا تجد ما يبررها سوى احتياج محروس إلى رضا أبي عيدة عنه برعاية ديوكه...

*****

غادر مدحت المعداوي الغرفة الصغيرة ذات الواجهة الزجاجية المحببة، التي تظهر الوجوه من خلفها مجرد خيالات دون تمييز لملامحهم.. شرع في نزع قفازه الطبي الملوث بدماءٍ لا تزال ساخنة، مبتسمًا لسيدتين إحداهما كانت عيناها تتعلقان بمدحت في لهفة عارمة، فهم منها أنها والدة الفتاة التي أجهضها منذ قليل، فاتسعت ابتسامته أكثر:

- **متتقلقيش ياهانم.. بالكتير ربع ساعة وتفوق، وكلها أسبوع وتقدر تمارس حياتها الطبيعية..** ثم أضاف بنبرة ماكرة: **وحترجع أحسن من الأول كمان...!**

أعطى تعليماته للممرض الأسمر الدميم، الضخم، الذى يساعده، بالمتابعة، وإبلاغه إذا



ما تفاقمت الحالة، ثم طرق رزمة الخمسة آلاف جنيه التي حصل عليها من السيدة الملهوفة. طرقتان على سطح مكتبه، ووضعها بجوار رزم مماثلة داخل خزينة العيادة، ثم أغرق نصفه العلوي عطرًا وهو يدندن بلحن فرنسي قديم، مغادرًا العيادة التي لا يضع عنوانها على «الكارت» الخاص به أبدًا، ولا يتردد عليها إلا لِوَأْدِ أجنة، أغلبها كان مكتملًا، بينما نظرات السيدتين تكاد تتعلق بطرف سترته من فرط قلقهما..

توقف أمام المدخل يجول ببصره، حتى وقعت عيناه على محروس، فناداه بإشارة من إصبعه باحتقار واشمئزاز، لكنه لم يَرَه؛ فقد صادفت الإشارة عينه المنطفئة، ولم يكن مدحت قد فطن بعد لعاهة طالع النخل، فخرجت عبارات السباب من فمه كالسيل، حتى طالت أُذُنَي محروس وغمرتها، فأقبل

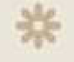


مهرولًا، وبَّخه وعنفه، ثم أمره بالاعتناء أكثر بتنظيف السيارة، بعدما لاحظ وجود طبقة أتربة رقيقة عليها منذ ثلاثة أيام، عندما كان يجري إجهاضًا سابقًا بالعيادة، ثم ترجل يسارًا في اتجاه حانة ستيقي؛ ليقضي سهرته، في حين قبع محروس وسط ظلام الشارع، وهو يميل برقبته متابعًا إياه، وما إن شاهده يدخل إلى الحانة، حتى بصق في اتجاهه من أعماقه هاتفا بمرارة: **قبر يلمك**..

*****

ظلت زينة تتأمل وجهها في مرآة صغيرة، تتحسس رموش عينيها برفق، وتراجع كحلهما. تأكدت من تورد وجنتيها، ثم ضبطت فتحة صدر ردائها ليظهر مفرق نهديها غامضًا موحيًا.. ثلاث نقرات خفيفة على باب حجرة مكتبها كانت كافية لجلوسها متظاهرة بانشغالها في حديث هاتفي.. أشارت بيدها للحاج عبد الحكيم السهلى، أكبر تاجر قطع





غيار سيارات في وكالة البلح والوجه القبلي، لكي يجلس أمامها، كان الرجل قد تحرر من جلبابه البلدي الشهير، وعباءته، وصفف شعره المصبوغ عدا فوديه، مكتفيًا بتخضيبهما بالحناء باعتبار أن لديه لقاءَ عمل مهم قد يسفر عن أشياء أخرى دارت في مخيلته ممنيًا نفسه بها طوال الطريق من فيلته في المقطم إلى الزمالك، فجلس متأزمًا في بدلته الضيقة، اللامعة، ورابطة عنقه العريضة، الحمراء، الفاقعة، وظل يعبث بمنديل جيبه الأصفر، حتى أنهت مكالمتها الوهمية التي استغلتها في قراءة حركات جسده، وتوتر يديه، وحَكِّهِ لأنفه باستمرار، وتلفته إلى يمينه كل برهة، بدا لها كببغاء عجوز أجرب الريش، فجاهدت لتكتم ضحكاتها حتى أفلتت منها إحداها رغمًا عنها، فاعتقد أنها في سياق المحادثة الوهمية التي تجريها. نجحت زينة



منذ طلاقها في اقتحام سوق قطع الغيار رافعة شعار الثقة، فكانت تشتري بضاعة بصورة شبه يومية من كبار التجار، حتى حطت برحالها عند الحاج عبد الحكيم السهلي؛ فهو أوسعهم ملاءة مالية، وأكثر من سال لعابه عليها، فرفعت حجم تعاملاتها معه، ليصير رقمًا يتزين بستة أصفار اقترضتها من البنوك، سلمته معظمها نقدًا والباقي بشيكات لها رصيد قائم وقت السحب، وعلى دفعات ربع سنوية، حتى كسبت ثقته فبات ينتظر قدومها، وصار يسعى إليها، وبأنوثة محترفة لا تعرف لغة العواطف، ودلال محسوب بدقة في الحركة والكلمة، مستغلة كونها شقراء طويلة، ممشوقة، تكشف ملابسها أكثر مما تستر، لم يستطع عبد الحكيم أن يصمد كثيرًا، فدكت معظم حصونه التي بناها بخبرته الطويلة في السوق والتعامل مع مختلف أنواع البشر، وتكفل هو بضعفه أمام النساء بالباقى، فترك





بقية الحصون تستسلم تباعًا، وصار يحسب أيام عمره بتلك التي تزوره فيها زينة أو تحادثه هاتفيًا..

شيخ على مشارف السبعين، متزوج من ثلاث بدينات، ولديه من الأحفاد عشرة.. بات على استعداد للخلاص من جواريه دفعة واحدة؛ ليتوج زينة على عرشه ملكة وزوجة، فلما أحست بنضج غريزته وتيقنت من احتلالها لعقله وامتلاكها لتفكيره، عرضت عليه مشاركتها في مشروع ضخم يدر ملايين كثيرة في وقت قصير، فكان رد فعله نابعًا من عقله الباطن أن فاتحها في أمر الزواج.

ضحكت ببرود، كعادتها، ولم تجبه سلبًا أو إيجابًا، بل تركته فريسة لحيرة يقف فيها أمام مفترق طرق لا يعرف أيًا منها سيسلك، كانت تبدو كلوحة جميلة بلا روح، مجرد ألوان كثيرة صارخة، وإطار فخم لا حياة فيه، لكنها







في معاملتها مع الرجال من نوعية عبد الحكيم، لم تكن تحتاج الروح بقدر احتياجها لجسد يعزف منفردا لحنها المختار، بينما تغرد هي بصوت مبحوح كعادتها.. «**أهلا يا حاج حكيم.. نورت المكتب**».. رقص قلب الرجل طربًا وهو يسمع اسمه منغمًا، مدللًا، مختصرًا.. ولكن قبل أن يرد تحيتها وهو يبسط كفه على صدره شاكرًا، باغتته مردفة:

- لولا إن ليك مكانة خاصة عندي ما كنتش قبلت مشاركتك..

قالت عبارتها الأخيرة خافضة من جفونها قليلا ومطبقة بأصابعها ذات الأظافر الطويلة المطلية بلون أسود لامع على سيجارتها البنية الرفيعة فجعلت عبد الحكيم يظل ضاغطا على قداحته وهو يشعلها لها، ضحكت ضحكتها الباردة وهي تنفخ شعلته ثم أحنت رأسها لأسفل قليلا لتلفت نظره إلى نهديها.. كان قد سبقها إلى هناك بعينين جاحظتين



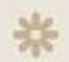
وملامح تشي بهياج يتأجج فيزيده سخونة وكأنها تتحكم فيه عن بعد، ثم اعتدلت في جلستها وارتدت نظارتها الطبية التي تكسبها وقارا مقلبة في أوراقٍ أمامها بجدية فانطفأت جذوة غريزته على الفور، قائلا بريبة مستترة:

- متأكدة إن العملية دي مكسبها مضمون يا ست الكل؟!

رمقته زينة من أسفل نظارتها لوهلة ثم دارت حول حافة المكتب واقتربت منه أكثر، فراح عطرها يغزو حواسه بقسوة، شعر بحركة خفيفة بين فخذيه فارتبك قليلا، ثم استسلم لحديثها وهي تشرح له مرة أخرى بعض تفاصيل الصفقة التجارية وأنها قد تغنيه عن العمل طوال حياته، ثم خفضت من صوتها وهي تقول:

- مكسبنا مش هيقل عن مية في المية يا حكيم...





شرد وهو يردد خلفها:

- يعني عشرة مليون بالميت يا ست الستات..

التقطت خيط طمعه من فمه وجذبته بشدة حتى طوقت به رقبته وأحكمت عقده قائلة بنبرة حاسمة:

- إحنا نعرف بعض من سنتين ونص وبنتعامل كل يوم في بضاعة بملايين وفلوسك بترجعلك بمكسب كل مرة.. ليه القلق من العملية دي؟!

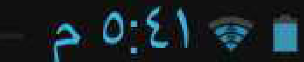
- المبلغ كتير يا ست الحُسن دول مليون دولار حدفعهم مرة واحدة وكاش كمان..

ربتت على كتفه بأناملها فأغمض عينيه مستسلما لخيالاته فقالت:

- انا قدامك اهو..

ارتج عبد الحكيم من داخله وهو يفرك في مكانه على إثر وقع العبارة على عقله الباطن،





فأردفت بجدية مفاجئة:

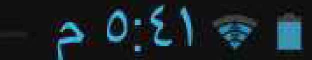
- حكتبلك شيكات بالمبلغ كله علشان تتطمن..

ارتاحت قسمات وجهه وهي توقع أمامه شيكات تغطي نصيبه ثم انفرجت أساريره أكثر وهي تأمر سكرتيرتها بأن تسدد الشيكات بالحسابات فورا لضخ مبالغ بقيمتها بالبنك قبل ميعاد الاستحقاق بأسبوع، على الأقل حقه بات مضمونا، ونال نصيب الأسد فلن يتحمل أي خسارة..

شكرها عبد الحكيم وسلمها حقيبة تضم بين جنباتها مليون دولار أمريكي، فاستعجلت سكرتيرتَها لتسلمه الشيكات، تململ قليلا في جلسته محاولا دعوتها على العشاء فودعته بمصافحة صارمة مصطحبة إياه لباب مكتبها وكأنها تطمئن لمغادرته بعد أن حثته عليها بدفعة رقيقة على كتفه.ووقفت خلف ستار نافذتها محتضنة الحقيبة الثقيلة مثلما







هؤلاء الرعاة الرئيسيين، أو يخرج الراعي عن قواعد لعبتها الخاصة عندما يمد عينه إلى واحدة خلاف ما اختارتها زينة له فيفقد موقعه على طاولتها ويصير منبوذا، كانت تبدو دائما كقوادة محترفة تشجع الآخرين على ممارسة الرذيلة وتدفعهم دفعا إليها ولكنها لا تسمح لرجل بأن يلمسها أبدًا، وتشعر بلذة غريبة وهي تراقب الآخرين منغمسين في انحدارهم بغرائزهم وعلاقاتهم الجنسية الرخيصة ووقتها تستبد بها اللذة حتى تبرق عيناها الخضراوان بلمعان غريب ومريب في آن واحد..!!

فحصت حقيبة يدها جيدًا قبل أن تغادر متوجهة للحانة، قلبتها رأسا على عقب، تعكر مزاجها فجأة وتجهمت ملامحها واهتز فكها قليلا، طلبت رقما على هاتفها وما أن جاءها صوته حتى قالت بلهجة آمرة:

- تعالالى المكتب يا صابر حالا..



ثم أغلقت الهاتف وقبعت على أريكة بجوار النافذة تدخن بشراهة وعصبية، وتتأمل حلقات الدخان التي تنفثها كل برهة وهي تنظر في ساعتها كل دقيقة في انتظار صابر..!!

*****

دقتان متتاليتان من بوق السيارة البيضاء يظهر بعدها بقليل محروس، وهو يسرع الخطى فيتضح عرجه جليًّا، يهم بفتح باب السيارة الأيمن فيفاجأ بنبرة خشنة من أبي عيدة:

- انت لسه حتتضايف وتقعد.. إنجز.

يتراجع محروس ويدفع الباب برفق مدليا عنقه من النافذة في دهشة:

- خير؟!

بلهجة استنكارية وعينين تطقان شررا أجابه:

- الشهرية ياطالع النخلة.. إيدك على ألف جنيه، أنا سبتك أول شهر محبة، وراعيت





العشرة والقرابة..

أفلتت نصف ابتسامة مريرة من بين شفتي محروس مرددا في أسى:

- منين؟

ثم اتكأ على مقدمة السيارة رافعا رأسه للسماء وهو يتنهد بصوت عال.. اقترب منه أبو عيدة في بطء كثعبان يزحف وسط حشائش كثيفة قائلا:

- اسمعني كويس يا محروس ياخويا إنت شهريتك هنا ستمية وخمسين جنيه وإكرامياتك من السكان زيهم ويمكن أكتر..

علت الدهشة وجه محروس لوقوف أبي عيدة على هذه التفاصيل، فأردف الأخير بعد أن قرأ وجهه:

- ده غير إن هاجر وأمها بيخدموا في الشقق يعني بيطلعلك من وراهم ألف تانية، ومتنساش إن أكلك وشربك ونومتك بلوشي، أنا متفق مع النوبى اللى مشغلك على كده..





ثم ربت على كتفه بغلظة خاتمًا:

- استهدى بالله وخش هات الألف جنيه بدل ماتنزل بكرة تحجز تذاكر القطر لأسوان ولا إيه يا ابن عمي؟!

احتاج محروس بضع دقائق ليزول اضطرابه وجَزَعُهُ فقد شعر بأن قدميه قد تخذلانه لو تحرك، لمح أشباح الفقر والعوز والبطالة تتراقص أمام عينيه، وكأن أبا عيدة مايسترو يحركها بعصا صغيرة، خرجت منه كلمات مبعثرة كانت هي خط دفاعه الأخير عن جنيهاته التي كسبها بتعبه وحده، حججه كلها تدور حول رفضه لعمل ابنته أو زوجته في خدمة البيوت مشهرًا سلاحه في وجه أبي عيدة:

- انت مش قلت لي لازم هاجر تتحجب علشان الناس هنا ديابة، ودلوقتي عاوزني ارجع اشغلها هي وأمها في بيوتهم؟!



رمقه أبو عيدة بنظرة ميتة وهو يشعل سيجارته وقد بدا كقاتل بدم بارد وهو يقول في هدوء:

- قلتلك تتحجب علشان تداري جسمها لأن ده لحمك يا محروس إنما الشغل عمره ما كان عيب ولا حرام يا أبو هاجر..

ثم أردف وهو يبتسم:

- وحلال عليك ياعم كل جنيه فوق الألف بتاعتي..

قالها ثم دفعه بهدوء صوب المدخل:

- روح هات الفلوس انا عارف انك محضرهم وربنا بكرة حيرزقك اكتر لانك ابن حلال.

مضى محروس مطرقا رأسه حتى وصل حجرته فأحنى رأسه وعبث أسفل وسادته قليلا وهو يلملم عملات ورقية ويحصيها حتى أكملت ألفا سلمها لأبي عيدة الذي دسها في جيب سترته، فأطلت بعضها من فتحته





في عشوائية، وكأن الجيب ينوء بحمله وقال ضاحكا:

- أنا مش حعد وراك..

لمعت سنته الذهبية إثر ضحكته ثم أدار المحرك ومال بجزعه يسارا رافعا رأسه ناحية محروس المتسمر في مكانه:

- لو عرفت إن شقة حتفضى في العمارة أو معروضة للبيع قولي على طول وحأكلك الشهد.. سلام.

*****

اجتاز سعيد النحال بوابة البنك في تؤدة ووقار، رجل خمسيني طويل عريض شرقي الملامح يحتفظ ببقايا قوام رياضي لم ينل منه الزمن بعد، شعره أسود فاحم ناعم تتخلله على استحياء شعيرات فضية بعضها غطى فوديه في جرأة.. أناقته المفرطة ووسامته الملفتة وتلفته يمينا ويسارا حائرا دفعت موظفى العلاقات العامة للهرولة نحوه



لمعاونته بعد أن قرأت قرون استشعارهم أنه رجل ذو حيثية ممن يفضلون خدمتهم والتزلف لهم دوما..

- الأستاذة فدوى عبد السلام مكتبها الجديد فين لو سمحتم؟ أنا سعيد النحال صاحب الشركة الدولية للتصدير والاستيراد.. قالها وهو يخرج كارتا صغيرا أنيقا من سترته..

كانت فدوى جالسة في حجرتها الجديدة بقسم خدمة كبار العملاء الذي انتقلت إليه مؤخرا وقد غاصت في مقعدها في كسل منتصف النهار، تعبث في هاتفها المحمول وتعيد قراءة رسائل سعيد النحال إليها، والتي تحتفظ بها كلها في ملف خاص تسميه باسمه الأول بالإنجليزية، رسائله كلها كانت غرامًا في غرام ظل يبثها إياه على مدار ثمانية أشهر مستعينا بأشعار نزار قباني وفاروق جويدة فيختار السهل منها ويضيف اسمها دوما



لأبياته، قلبت ثلاثين رسالة كان في آخرها يستميحها عذرا ويطلب منها أن تصبر صبرا جميلا حتى يطلق زوجته ليتزوجها ثم يستفيض في وصف ما سوف يفعلانه بعد الزواج فيلهب خيالها المتلهف لتصبر أكثر..
ظلت تسأله ذات السؤال كل يوم في الأشهر الثلاثة الأخيرة وإجاباته
لا تتغير.. كلها بعبارة واحدة: الصبر، حتى تشفى زوجته من مرضها وتجري جراحة لتوسيع الشرايين..

شردت فدوى وهي تلوي شفتيها المنتفختين بامتعاض، خلعت نظارتها الطبية وفركت عينيها وأعادت ظهرها للوراء وهي تتحسس خموص بطنها أسفل نهديها المتكورين وأكثر ما يلفت النظر فيها فلاحظت أنها ممتلئة قليلا بعد أن تخلت عن نظام التخسيس الذي اتبعته منذ شهور، كان ابتعاد سعيد عنها في الآونة الأخيرة بسبب مرض زوجته، يوترها فتفرط





في الطعام غيظا، ظهرت عليها ملامح الضيق فهي قصيرة للغاية والبدانة تزيدها قصرا حتى لو كانت زيادة طفيفة في وزنها فتبدو وهي تسير كأنها تتدحرج لا تمشي.

- مفاجأة مش كده؟!

أطلقت صيحة فرحة صاخبة عندما سمعت صوته ورأته أمامها ثم كتمت فمها بكفها خجلا من موظف العلاقات العامة الذي أوصله لمكتبها، ظلت متنمرة حتى غادر ثم تعلقت بعنق سعيد وهي تحتضنه بقوة.. اتسعت ابتسامتها وعادت إليها نضارتها فجأة، أشرقت كل ملامحها في جزل وتوهجت أحاسيسها كفتاة التقت فتاها بعد لوعة واشتياق ورغم أنها تخطت الثلاثين بست سنوات كاملة إلا أنها لاتزال تحمل قلب طفلة وكثيرًا من عقلها، جلست إلى مكتبها وهو يتأملها بِتَرَوٍّ وابتسامة حانية تلج من شفتيه بالتدريج، وعيناه

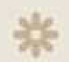


تطلقان نظرات مفعمة بلهفة عارمة فتلهب مشاعرها أكثر حتى تؤججها، دار بينهما حديث طويل معظمه هامس حتى استشعر أنها على وشك إلقاء سؤالها المعتاد، فاعتدل بظهره في مقعده قائلا بلهجة من يبتر الحديث فجأة:

- أنا مش حعطلك كنت عاوز اسحب عشرين ألف دولار من حسابي وبالمرة اديلك توكيل مراتي عملتهولي على حسابها، بس إنتي عارفة إنها مريضة فخليه عندك في الملف واعملي مطابقة على التوقيعات وكملي الورق ولو.....

لم يكمل عبارته بعد أن نحت فدوى الأوراق كلها جانبًا دون أن تنظر إليها، وهي شبه هائمة لا تريد أن تنتقل من الأحلام إلى الأرقام بخطوة واحدة هكذا، فضحك وهو يربت على كفها مشيرا إلى أوراق حساب زوجته والتوكيل:





- حد يعمل كده في عشرة مليون جنيه..
- حنتجوز إمتى يا سعيد؟!
احتضن يدها بكفيه وطبع على باطنها قبلة حانية طويلة ثم استدعى ابتسامته الهادئة على شفتيه قائلا:
- قريب أوي، وأقرب مما تتخيلي وبعدين أنا عملتك توكيل من شهرين على حسابي يعني ممكن تحددي المهر بتاعك وتسحبيه كمان..!
قالها ضاحكا و قبل أن تفيق فدوى من سكرتها عاجلها مستعيدا ذات النبرة:
- رتبي الورق ولو محتاجة توقيعي في أي حاجة إمضي مكاني بالتوكيل وهاتيلي العشرين ألف دولار معاكي أنا حجزت عند ستيفي الليلة علشان نسهر سهرة حلوة.
انتبهت فدوى كمن تذكر شيئا ثم نقلت بصرها إلى شاشة الكمبيوتر على يمينها، وهي تضرب أرقاما في سرعة فائقة دون أن تنظر





إلى لوحة المفاتيح:

- إنت حسابك حيبقى مكشوف لو سحبت منه عشرين ألف دولار.

أجابها ببرود وكمن يتوقع السؤال:

- مش مشكلة غطيه من حساب مراتي والتوكيل عندك في الدوسيه.. أشوفك بالليل.. على فكرة مكتبك الجديد شيك جدا.. سلام.

قالها مرسلا قبلة في الهواء تاركا إياها ثَمِلَةً بالسعادة، وسرعان ماكان قد تبخر من أمام عينيها.

*****

زفر العقيد حسين عناني زفرة طويلة كمن خرج من قبو مكتوم وهو يستلقي على ظهره في فراشه، وعرقه يتفصد منه بغزارة فالتصقت (فانلته) الداخلية بجسده، وظل يتنفس بصورة متلاحقة كقربة منتفخة ترتج في صمت.. تقلبت زوجته وأعطته ظهرها بملامح متجهمة، عبثت بأصابع مضطربة





بجوارها فأضاءت غرفة نومهما والتقطت سيجارة أشعلتها بعصبية مكتومة قائلة، وهي تنفث دخانا كثيفا دفعة واحدة:

- لازم تشوف دكتور يا إما تنسى الموضوع ده خالص..

وكأنها ألهبت جسده بسياط مغموسة في زيت يغلي فانتفض من داخله مقطبا جبينه ثم لاذ بالصمت؛ فقد بات يفشل مع كل محاولة يقترب فيها منها لا يقوى على تحريك ساكن، وكأنه تمثال في متحف تلمسه عشرات الفتيات بينما يكتفي هو بنظرة جامدة من عينيه الغائرتين المنحوتتين في وجهه..

انتابه شعور غريب في السنوات الأخيرة مع زوجته، كلما رغب فيها يشعر من داخله أنها تصده في البداية فيقاوم شعوره بعنف ويصر على ما انتوى فعله معها فَيُهَيَّأ له أنها ترمقه بنظرة تحد وكأن لسان حالها يصرخ في





وجهه:

- لن تستطيع أن تفعلها..

بعدها تدور رأسه بأفكار غريبة، وتتقافز الهواجس إلى مخيلته فلا تستجيب غريزته لنداءات عقله المشوشة، فَيُهَيَّأُ له كثيرا أن زوجته تبدو كذكر مكتمل الرجولة، صدرها مشعر ولها شارب كثيف ولحية خفيفة غير مهذبة، فينفر منها فجأة مرتجفا فتخف وطأة ذراعيه المطبقين على كتفيها، ويبتعد عنها بصدره مدققا في ملامحها منزعجا، تفتح هي عينيها بعدما غادرتها النشوة على حين غرة، وكأنها تستفسر منه عن رد فعله المفاجئ فيجيبها بمعاودة محاولته وهو مترقب حذر، فلا يفلح إلا في مضايقتها بحركة جسده العصبية وهو يهتز بعنف فوقها دون برهان، فتشعر بثقل أنفاسه وتلاحقها اللاهث ووطأة وزنه على جسدها النحيل.. بات كل ما في مقدوره أن يحدث ضجيجا بلا طحن.. لم يعد



يفهم ماذا جرى للزهرة البرية التي خطبها ثم تزوجها منذ سنوات كيف كبرت وتوغلت وتفرعت حتى صارت غابة موحشة يخشى أن يطأها بمفرده، ابتعد عنها منكمشًا وهي ترمقه شذرا كنِمرة غير مروضة..

أخذ حماما باردا وشرع في ارتداء ملابسه متأهبا للخروج، خرجت كلماتها من بين أسنانها بغضب:

- **رايح البار برضه؟**

أومأ بالإيجاب متجنبا مواجهتها.. مضى في طريقه مشعلا سيجارته مستسلما لتيار هواء بارد من نافذة سيارته، سنوات طويلة أمضاها في المباحث الجنائية، كان يعمل فيها على مدار أكثر من ثماني عشرة ساعة كل يوم تحت إِمْرَةِ لواء لا يظهر إلا وقت الحصاد ليتلقى تهنئة الوزير على سرعة الإنجاز وتمام المهمة بعد أن يكون قد نقل تعليماته وأوامره



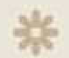
قبلها للعقيد حسين وضباطه، وإذا ما أخفقوا
أو قصروا حاسبهم حساب الملكين بلا هوادة،
وبعد سنوات الرق الطويلة تمت ترقيته فنقل
إلى مصلحة الأمن العام، صارت مسئولياته
أكبر ومهامه أكثر، لكن غيره يحصدها
كالمعتاد، وكأن رئيسه يكتم أنفاسه تحت الماء
ثم يسمح له بالتنفس كل فترة، ثم يعاود
إغراقه في ملفات المشبوهين والمجرمين لفك
طلاسم القضايا، نسي نفسه وذاب في خضم
الأوراق والجرائم والخدمات الأمنية
والتشريفات، ولكن عندما واتته الفرصة قرر
أن يعوِّض كل ما فاته بعد أن أدرك قواعد
اللعبة فاتسعت دائرة علاقاته، وارتقى بها من
تجار تجزئة وبائعي فاكهة وجزارين إلى
رجال أعمال وفنانين ولاعبي كرة وأصحاب
معارض سيارات، حتى حامت حوله شبهات
كثيرة لم يستطع دحضها أو إبعاد سُحُبِها
الغائمة عن سمائه فتلبدت، ولأنه لم يكن له





ظهر يحميه فكانت بطنه هدفا واضحا
لضربات موجعة فتنقل بين محافظات الصعيد
وذاق الأمرَّين في غياهب الأرياف وأقاليم
الصعيد حتى صدر قرار بعودته إلى شرطة
المرافق مراعاة لملف خدمته، تمهيدا لترقية
مرتقبة ترشحه بعدها للخروج المبكر إلى
المعاش على رتبة لواء..!

عاد لرعاته القدامى ومموليه الأولين كان
أشهرهم أبوعيدة الخاضع لدائرة عمله بقسم
قصر النيل، فكان يحصل من كل منهم على
مبلغ شهري يتراوح بين ألف إلى خمسة آلاف
جنيه حسب ما يسديه لهم من تغطية أمنية
على جرائمهم يعوض بها ضعف راتبه الهزيل
أمام راتب زوجته الضخم بالشركة
الاستثمارية متعددة الجنسيات، والتي كانت
تتعمد معايرته به، كانت خدمته لأبي عيدة
مزدوجة فلا تقتصر على ترك شحاذيه والباعة



الجائلين من رجاله في أمان فقط، وإنما كان يخلي لهم الساحة بالقبض على دخلاء منطقة الزمالك من أمثالهم والتنكيل بهم ليكونوا عبرة لغيرهم؛ فلا تسول لهم أنفسهم أن يتسولوا بتلك المنطقة مرة أخرى.. كان قد تعرف على ستيڤي منذ سنوات بعيدة بعد حادث قتل لسائح أجنبي بالفندق الذي تقبع الحانة في قبوه وبعد استجوابه لستيڤي توطدت صلته بها وصار زبونه، فيتجرع من الخمر ما يزيد على حاجته ولايدفع مليما مقابل معلومات يقدمها له عن بعض النسوة والرجال من مرتادي الحانة من واقع ملفاتهم بالأمن العام أو بمعاونة زملائه بالمباحث الجنائية، وكان ستيڤي بدوره يبتزهم بها بطريقته الخاصة..

أخرج هاتفه ليطلب ستيفي لكي يجهز له مقويا جنسيا من الوصفات البلدية من منطقة السيدة زينب.. قبل أن يتم الرقم الأخير أغلق الهاتف وقذفه فى حنق على المقعد المجاور؛





فقد تذكر أنه سبق وجرب هذه الطريقة من قبل، ولم تفلح حتى اقترح عليه ستيڤي منذ شهور أن يجرب نفسه مع إحدى الساقطات باعتبار أن لها خبرة ودراية قائلا له بنبرة موحية:

- الهام دي يا باشا صاحبة كرامات وبتعمل معجزات وبتصحي الميت..

ثم اكتشف بعدها أنه خرج من عداد الأموات ولم يلحق حتى برميم العظام، فقد صار جسده بورًا لا حياة فيه ولا رجاء منه، فكادت إلهام تفضحه لولا تدخل ستيڤي لإسكاتها ولما انتوى العقيد حسين تلفيق قضية لها ليتخلص منها للأبد نصحه منير بتركها لحالها حتى لا تلوك سيرته في كل مكان..وقتها تملَّكه شعور غريب برغبته في قتلها، ثم نسيها فجأة وكأن شيئا لم يكن. بعد نقله إلى إدارة المرافق شعر حينها أنه غير قادر على إيذاء حشرة تحوم



حوله وتضايقه، وأن كل ما وسعه أن يبتعد عن النطاق الذي تحلق فيه. وصل إلى الحانة تاركًا سيارته لأحد رجال أبي عيدة الذي استقبله بصيحة عالية تليق برتبته:

- باااشا.

ترجَّل بطوله الفارع وهو يصفعه في لين ورفق بكفه الضخم مداعبا، وجفناه منسدلان كأنه نصف نائم كعادته ليلا ونهارا قائلا بنبرة لا تخلو من أمر بحكم العادة:

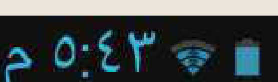
- خلي بالك من العربية دي مش الميري يا روح امك واغسلها بره وجوه..

ثم نزل درجات السلم على مهل ككهل يتحسس طريقه مستندا إلى الجدار وسرعان ما ابتلعته الحانة.

*****

...حسناء جميلة فاتنة ذات ثغر مبتسم تقابلك بترحاب وألفة بالغة، تتدلل عليك وتتبسط معك فيزول توترك على الفور وتنهار



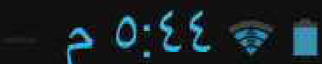


كل كلفة بينكما في ثوان، ومع الجرعة الثانية تحتضنك برفق فتتشمم عطرها النفاذ ليأخذك إلى آفاق بعيدة.. وفي كأسك الثالثة تتدافع الذكريات إلى مخيلتك بأبيات لموشح أندلسي قديم أنشده أبو بكر بن زهر لتردد معه في نشوة عارمة..

غصنُ بانٍ مال من حيثُ استوى
بات مَنْ يهواه من فرطِ الجَوَى
خَفِقَ الأحشاء موهونَ القُوى

تضاء الأنوار وتُغلق الأبواب مودعة آخر الرواد المترنحين ويشق ظلام الليل أول خيوط النهار برفق، وكأنها تُؤَهِّبه وتُعِدُّه لنور ساطع بعد قليل يكشف كل مستور؛ لتتبخر الحسناء فجأة وتتهاوى عجوزًا شمطاء على أقرب مقعد، بعد أن أعياها السهر وغواية مرتادي الحانة حتى ارتووا جميعا من نشوتها.. تجردت من زينتها رويدًا رويدًا





وتركت باروكتها تتساقط بجوارها، وخلعت رموشها الصناعية ومسحت مساحيقها الزاعقة فلاحت أخاديد التجاعيد العميقة المحفورة بوجهها على مر السنين.. انقلبت المقاعد على المناضد وكأنها تتمرد على رائحة جالسيها، عشرات من أعقاب السجائر وبقايا أطعمة متناثرة بعضها آتٍ من معدة متقلبة متوترة من فرط الشراب، وأخرى من الجهل بأصوله، فخلفت رائحة عطنة إلى جانب منظرها المقزز.. راحت العجوز تتكئ على عصاها بصعوبة لتنهض وتنال قسطا من راحة قبل معاودة نشاطها ووضع زينتها لتستقبل روادها من جديد، مضت تسير منحنية الظهر تستند إلى الجدار حتى اختفت عن الأنظار.. يفيقون في الصباح فلا يجدونها بجوارهم، يتحسسون مكانها الشاغر بلهفة و يفركون أعينهم غير مصدقين لوهلة.. ينتبهون إلى الهموم وهى تتقافز على أكتافهم فرحة





بعودتها إلى ذاكرتهم تشغلهم وتقض مضاجعهم وتعتصر آلام الصداع رؤوسهم الثقيلة..تنسدل قليلا جفونهم المرهقة من السهر..يزفرون في ضيق يكاد لهيبه يحرقهم، يتلهفون العودة إليها ويستبقون عقارب الساعة وهم لا يدركون أنها تعود بهم إلى الوراء رويدًا رويدًا..

*****

تفرَّس وجهه مليًّا.. **هناك أمر غامض يا تُرى ما الذي تغير؟!** دقائق مرت بطيئة كسحابة صيف غائمة حتى أدرك بعدها أن نظرته بدت ميتة نوعًا ما وكأنها تحجرت في مقلتيه.. **ربما**.. ولكنه مازال قادرا على تغيير جلده والعودة للحياة.. **هل يموت المرء مرتين؟** لم يتلق إجابة حاضرة ولكن ما الذي يهم، حتى لو مات عدة مرات فما دام يعود للحياة من بعد الممات فهو قادر دوما على أن يعيش



حياة أخرى يتفادى فيها أخطاء الأولى، فليحيا إذن حياته الثانية متجنبًا كل خطايا الماضي.. **خطايا؟! نعم خطايا.. ولكن لم يقل لي أحد يوما إنني أخطأت أوارتكبت خطيئة؟! يبدو أنهم يقصدون متاعب العقل وإرهاق التفكير وأوجاع القلب وشروخ الوجدان.. سأجمد قلبي مؤقتا وسأضع عقلي في لفافة من حرير وألقيها في مكان بعيد لا يعرفه أحد سواي، سأقف على الحياد، لن أحب أو أكره، لن أُغَلِّبَ عاطفةً على حكمة بل سأتجرد من الاثنتين معا.. أنا الحاضر الذي لا يموت.. وأنا الماضي الذي سيعيش فيه الجميع معي إلى الأبد..**

ارتاحت قسمات وجهه إلا قليلا وبقيت النظرة الميتة محفورة في مقلتيه بعمق ووضوح بعدما التصقت بهما بشدة مع مرور الزمن..!!

أغلق ستيفى باب غرفته الصغيرة الملاصقة

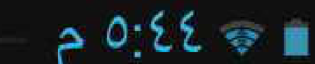


للحانة خلفه برفق، بعد أن شعر بخدر الأفيون يسري في عروقه، كانت الساعة تقترب من العاشرة والنصف حين بدأ بعض الزبائن يتوافدون فأشار بإصبعين من يده إلى النادل موفق، فانخفضت الإضاءة إلى المستوى الأول وصارت أركان الحانة أكثر غموضا وجاذبية، مع مرور الوقت علت أصوات طقطقة الكئوس واصطكاكها ببعضها، تناثرت ضحكات من بعض الأركان و بعضها جلجل من منتصف الحانة لسيدة شقراء بدينة قاربت الخمسين، وبصحبتها امرأة تبدو كبناية آيلة للسقوط من فرط طول قامتها، وانحناءة ظهرها، وتجاعيد وجهها التي تشبه الأخاديد.

كان الرواد يتحدثون بصوت مرتفع فلم يكن ستيقي قد أمر بتغيير الموسيقى اللاتينية التي يتصدرها النفير والبوق بعد، شعر بانتشاء وثقة وهو يشد قامته فقد أُغلق باب الترشيح







على مقعده في رابطة العاملين بالغرفة السياحية، ولم يتقدم أحد سواه، حتما سيحصل عليها بالتزكية مثلما فعلها من قبل فيضمن التجديد لسن الخامسة والستين..عامان إضافيان وفقا للآئحة.. **وكله بالقانون**، ابتسم بهدوء الواثق وهو يردد الجملة الأخيرة همسا و يمر بين المناضد محييا الجلوس متخيلا خيبة الأمل التي ستعتلي وجوه أعضاء مجلس الإدارة عندما يجدون أنفسهم مجبرين على التجديد له لفترة أخرى، اقترب من طاولة يجلس عليها الوزيرالسابق وأستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة الدكتور كامل أبو الأسرار الذي ترك وزارته منذ أسابيع قليلة بلا مقدمات، حتى تجرأ عليه بعض الصحفيين الحكوميين طعنا في ذمته المالية، ففهم العامة سبب خروجه وبات الخاصة وأولهم الوزير في انتظار تحقيقات تُجْرَى معه فى وقت لاحق؛ فالكلاب دائما ما





تتصدر مقدمة القافلة لتنبئ عن وصولها..
صافحه ستيقي بأدب جم مناديا إياه بمعالي الوزير.. أشار لستيقي بعينيه فانحنى مقربا أذنه منه:

- لما المتر وحيد يوصل إبقى بلغني أرجوك لأني معرفتش أقابله في مكتبه..

همس ستيقي له:

- كل يوم أربع من الساعة 3 ظهرا إلى الخامسة مساء، وهنا أفضل من المكتب لاتقلق سأرتب أنا الأمور..

كان الوزير مضطربا فوحيد حلمي لا يرد على هاتفه، ولم يفلح كامل في الحصول على ميعاد بمكتبه، ودائمًا يجيبونه بأن الأستاذ مشغول لشهور قادمة، وهو يخشى مفاجأة البلاغ والتحقيقات التي سوف تظهر حتما فجأة؛ مثلها مثل الرعد والبرق يصعب توقع أيٍّ منها مسبقا، والصحافة القومية بات



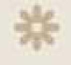


واضحا من إشارتها المتقطعة أنها لن تتركه حتى تجرسه، وصورته خلف القضبان بصفحاتها الأولى باتت مترقبة.

تركه ستيفي شاردا غارقا في كوابيس وهواجس مخيفة وهو يقبع في ركن مظلم بنهاية الحانة، بعد أن انحسرت عنه الأضواء من كل جانب.

*****

طلب صابر فطيرة كبيرة بالزيتون وأخرى بالجبن الأبيض، وجلس على دراجته البخارية الصفراء أمام محل الفطائر الذي يعمل به في حي الزمالك يدخن سيجارته لحين نضوج الفطيرتين اللتين سيقوم بتوصيلهما لزبائنه، دق هاتفه مرة أخرى كانت خطيبته هي المتصلة، أغلق الهاتف ولم يرد فلم يعد في مقدوره أن يقدم لها أعذارًا جديدة لتأجيل زواجه منها، فمنذ أن أنهى دراسته في معهد الترميم وهو لا يجد عملا مناسبا، ظن أن



دراسته الأثرية ستفتح له أبواب رزق وشهرة في بلد تعاني التخمة من المعروض والمخزون الذي يحتاج بالضرورة لترميم، فأفاق من أوهامه جالسا وسط عشرات الموظفين الإداريين بإدارة مكتبية لا لزوم لها بمبنى حكومي كئيب بمنطقة العباسية، لا يفعل شيئا سوى الحضور والانصراف والابتسام لزملائه والنميمة على آخرين وقراءة الجرائد إن وجدت، عينوه بعقد مؤقت بوساطة من عضو مجلس شعب عن دائرته بعد أن سلمه مرغمًا تحويشة عمره خمسة آلاف جنيه، فاكتشف أن مرتبه الحكومي مائة وخمسون جنيها فقط..

ظل عامًا كاملًا يحاول أن يخلق لنفسه اختصاصا حقيقيا فأعيته المحاولة حتى جاءت إجابة رئيسه باترة لطموحه:

- إحمد ربنا إن مفيش مسئولية عليك، عاوز




يبقى عندك عهدة ولما تتجرد تخش السجن؟!
شباب فاشل ومستعجل!!

هل كان فاشلا فعلا؟! تساءل مع نفسه وشريط حياته يمر أمام عينيه ببطء..

أثناء فترة خدمته العسكرية عمل سائقا بوحدته وأجاد حتى استخرج رخصة قيادة درجة أولى، فقد أدرك مبكرا أنه لن يعمل بشهادته بسهولة، فحاول الالتحاق بوزارة البترول طمعا في مرتب مجز، ابتسم في مرارة وهو يتذكر عبارة موظف الاستقبال بالوزارة:

- يا أخ صابر انت تعرف حد مسئول هنا في الوزارة علشان تقدم ورقك؟

فلما أجابه بالنفي أشاح الموظف بوجهه وهو يغمغم في ضيق:

- هيه ناقصة مجانين على الصبح!!

نجح بعدها في اختبارات القيادة عندما أعلنت رئاسة الجمهورية عن طلب سائقين،



ولكن المهندس المدني بالقصر الجمهوري أبلغه يوم النتيجة بما لا يشتهي:

- مش بالضرورة علشان نجحت تتعين، لكن لو معاك 25 ألف جنيه حنقولك مبروك، انت فعلا سواق شاطر!!

ألقى بعقب سيجارته وسحقه بحذائه وهو يردد كأنه لا يزال واقفا أمامه في نفس الموقف:

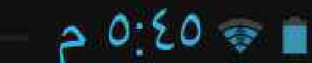
- ما انا لو كان معايا 25 ألف كنت جبت التاكسي ياولاد الكلب.

عادت عبارة المهندس المدني ترن في أذنيه:

- يا أخ صابر انت ممكن تترشح سواق في سفارة من بتوعنا في أوروبا وتقبض بالدولار، إيه يعني 25 ألف جنيه تدفعهم دلوقتي.. ده أحسن استثمار يا عبيط!!

وقتها أدرك أنه سيظل عبيطا للأبد فركن إلى الوظيفة الحكومية التي لم يكن راغبا فيها

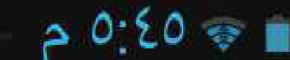




يوما ما معتمدا على شهادته الدراسية.. بعد شهور طويلة من بحث مضن انتهى به الحال إلى الالتحاق بوظيفة عامل توصيل طلبات بمحل الفطائر الصغير الذي يعمل على محاكاة الفطائر الريفية لسكان حيٍّ راق، أغلب زبائنه من الشباب الذين لا يعرفون الطعم الأصلي للفطيرة، وربما شكلها فظنوا أنهم يشترون منتجا ريفيا حقيقيا، ظاهرة جديدة أعجبتهم وكالعادة تمادوا في مدحها وأفرطوا في تناولها، كان يعمل على مدار ثماني ساعات يوميا فضمن دخلا مساويا لما يحصل عليه من الحكومة، أما الإكراميات فقد سمحت له بمواصلة عادة التدخين التي كاد يقلع عنها بسبب فقره..

في شهوره الأخيرة انقلبت حياته رأسًا على عقب عندما ترك زميله رامي العمل واشترى تاكسيا، ولما علت الدهشة وجه صابر وألح عليه مستفسرا أفضى له رامى بسره واختصه





به:

- الحشيش يا صاحبي..

كلمات قليلة لخصت الطفرة الاقتصادية التي حلت برامي الذي وجد ضالته المنشودة في صابر بعد أن رغب في التقاعد عن بيع الحشيش راضيا قنوعا بسيارته متغافلا أنها أتت من تجارة محرمة، عرض رامي عليه التوزيع بالتجزئة مقابل مبلغ شهري ثابت يقترب من الواحد الصحيح المتزين بأصفار ثلاثة متلألئة تخطف الأبصار، تردد في البداية وعاش أياما في قلق وأرق، فخطيبته التي أحبها أيام الدراسة وتمناها زوجة أوشكت على الإفلات من بين يديه؛ بسبب طلبات أهلها المبالغ فيها والفقر يوجعه كل يوم ويلكزه بلا رحمة، حتى استسلم في النهاية لمغريات زميله الراغب في التقاعد ويبحث عن بديل جاهز، فلما تودَّك صابر ونضج صار



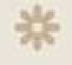


يعمل لحسابه ليزيد دخله فتعامل مباشرة مع تاجر الجملة المهيمن على المنطقة كلها ثم عرفه رامي على بعض زبائنه القدامى، حتى وثقوا فيه. أما الوسيلة فكانت أسهل من أن تخطر على باله فزبونه المدمن عندما يطلب الفطيرة فهذا يعني ضمنًا أن يضاف إليها قطعة الحشيش وبعد مرور أربعة أشهر كبر طموحه وتطلعاته وزاد جشعه، فلم يعد يرى أن دخله يقفز كقرد يتسلق شجرة، وإنما رآه دوما أشبه بنملة تزحف ببطء على عامود طويل، ولاتزال في ثلثه الأول فلم يجد له مخرجا أبدا من طمعه..

- الفطاير جاهزة يا صابر..

حمل الفطيرتين متوجها أولا إلى مكتب زينة فهي زبونته الأكثر سخاء، فتحت له الباب في عصبية ظاهرة سلمها العلبة الكرتونية ومعها لفافة تحوى المخدر مصحوبة بابتسامة اعتذار عن تأخره، تركته لتحضر نقودا





فاشرأبَّ بعنقه يمد عينيه كعادته مع زبائنه إلى أثاث مكتبها الأنيق، وهو يحلم بربع مساحته كسكن في منطقة شعبية ولا يستطيع بعد..

نقدته إكرامية سخية وأعادت إليه الفطيرة قائلة:

- معنديش حد ياكلها اتصرف فيها..

ثم أغلقت الباب في وجهه.. في طريق مغادرته التقى محروس جالسًا في ملل يعبث بأصابع قدميه، ويتأمل المارة والسيارات في وجوم:

- مدام زينة بعتالك الفطيرة دي بالهنا والشفا..

شكره محروس بشدة وظل واقفا يحييه بحرارة حتى غاب بدراجته البخارية عن الأنظار.

***



ابتسامته حتى كادت تطول أذنيه وانسحب في هدوء، وهو يكتم ضحكته متيقنا أن وحيد حلمي قد كسب القضية، وأن الوزير أبا الأسرار سيدفع الملايين الخمسة صاغرا..

عندما استقر ستيقي خلف البار كان مزاجه رائقا، تفحص «مانيفستو» الطلبات وهو يدندن وسرعان ما تحركت ذراعاه كالأخطبوط، وبدا كأنه لاعب سيرك يؤدي من الألعاب أخطرها فيحبس المتفرجون أنفاسهم وهم يتابعونه، تعلقت الأبصار به وهو يجهز ثلاثة كوكتيلات في وقت واحد يضيف مكعبات الثلج بعناية ويقطر الروم والفودكا بدقة ثم يضع بعض شرائح الليمون على إحداها وقليلًا من الصودا على أخرى.. جامل منضدة الشباب بثلاثة كئوس كبيرة من البيرة على الطريقة المكسيكية بعد أن رشها بالملح فارتفعت رغوتها وانتفخت فهدَّأها بقليل من الليمون..





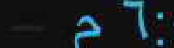
أعجبتهم بعد أن خُدِعُوا بفورتها الكاذبة فرفعوا كئوسهم لتحيته وهم يشربون في نخبه حياهم كعادته بكوب الماء الذي يستقر أمامه ونصفه مملوء دائما، مطمئنا أنهم سيطلبون منها الكثير تلك الليلة.. كان اللواء نبيل الألفي ونديمه رأفت الماوردي جالسين في مكانهما المعتاد على البار، كان رأفت يتابع ستيقي بشغف وهو منبهر بأدائه ثم باغته متسائلا بدهشة:

- ازاي بتخلط مقادير الكوكتيل بالدقة دي وانت مش بتشرب أبدا؟!

صمت ستيقي متفحصا الجلوس حوله على البار فلمح فيهم آذانا صاغية متلهفة فرد بثقة لا تخلو من غرور، وكأنه قبطان خاض بحرا جسورا توقف الجميع عند سواحله رهبة وخوفا، جال ببصره بينهما وهو يقول بلغة عربية سليمة متقمصا دور المعلم:

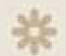
- المسألة بسيطة يا عزيزى فشارب الخمر

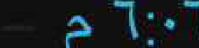




ليس دائما صاحب مزاج، أنتم أقلية في هذا الزمان ولكن الأغلب الأعم من السكارى هاربون من شيء ما.. هم كالشخص الخائف الحبيس في مكان كئيب مغلق عليه وحده، وعندما تفتح له بابا يطل على حديقة لن يتوقف كثيرا أمام تنسيق زهورها، بل سيشكرك بحرارة، وبعد عدة كئوس من يدي أستطيع أن أقدم له أي شيء ملون بنقطة واحدة وأيضا سيشكرني.. أنا أعرف ذوق زبوني من عينيه، من حركات جسده، من توتره، من عصبيته ومن هدوئه، كل منهم له مشروبه وكل له طريقة في صنعه، نحن نعيش في فقاعة كبيرة الشاطر فينا أو من يخرج منها لينظر إليها من بعيد فيرى الآخرين جيدا ويقرأ أفكارهم ثم يعود ليلبي احتياجاتهم فيحقق لهم النشوة التي جاءوا من أجلها..







قال عبارته متنقلا ببصره بين منضدتين يضمان زبائن لا يشربون كثيرا، وإنما فقط يأتون لتناول كأس أو اثنتين مع العشاء وينصرفون مبكرا، وكأنه يثتثنيهما من حديثه القادم ثم تقمص شخصية الفيلسوف أكثر مسترسلا لمستمعيه الجالسين على البار من السكارى المنتشين، الذين بدا عليهم جميعا استحسان لما يقوله فأضاف بنبرة مسرحية:

- الناس يا بهوات زي الخمور فالشباب كالبيرة في فورته وانتعاشه والستات زي الفودكا تقرب منها وتفتكر انك سيطرت عليها، وفجأة تلطشك واحدة فتقع من طولك، أما شاربوا الويسكي فدول بيفكروني باللي بيقعدوا مع راجل مثقف حقيقي يسمعوا أفكاره وأراؤه لكن الصداع مش حيرحمهم بعدها، أما المفكرين وبتوع السياسة فدول بقى زي النبيت المعتق كل ما كبروا كبرت





خبرتهم.

ثم تقلبت سحنته مائلة نحو القرف وهو يضيف:

- بس اليومين دول بقوا زي الكوكتيلات خليط كده من حاجات ملهاش دعوة ببعض بتبهرنا شوية، وبعدين تروح عليها زي الموضة بالظبط..

- وانت يا ستيڤي؟!

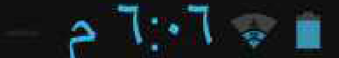
أجاب باللغة الفصحى مرة أخرى، وبغرور وزهو يطلان من عينيه في خيلاء :

- أنا كالماء لا غنى عنه في أي وقت.. أنا موضة لا تنتهي أبدا يا رفاق..

***



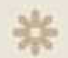




5
الساقي

تموج النيل فجأة وكأنه يطوى على نفسه غضباً من أناس تركوا سيارتهم الفارهة، ونسيم الكورنيش العليل وترجلوا صوب قبو ابتلعهم في ثوان معدودات ليستنشقوا هواءً معلبا..اقترب شاب غريب المظهر مع فتاته المتطرحة بغطاء فاقع لونه لا يسر الناظرين فاعتليا مقدمة السيارة ليكشفا النيل بأبصارهما، التصقا ببعضهما ثم غابا في إغماءة قبلة متوهجة مسروقة من زمن رديء، متمردة على التقاليد ولكنها تفتقر إلى منطق قوي أوحجة مقنعة تساندها، فازدادت صفحة النهر تقلبا..!

هبطت داليا خليل درجات القبو ببطء من

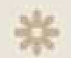


تغار منها فجعلتها تلعب دورا ثانويا أيضا في حياتها كما في أفلامها..

عندما دلفت داليا إلى الحانة مرقت بين الطاولات في طريقها إلى طاولة زينة، مرت بالقرب من البار الرئيس فلما لمحها اللواء نبيل رفع من صوته وكأنه يوجه حديثه لرأفت الموادري:

- **بكرة تظهر عليها أعراض الكتابة كمان ونقرالها مقالات..** رمقتهما بنظرة ازدراء قاسية ومضت في طريقها، ما كادت تشرع في الجلوس حتى أمرتها زينة أن تجلس في مقعد آخر لتكون في مرمى بصر أحد ضيوفها حسبما خططت.. وجه داليا المرهق وكم المساحيق التي اعتلته أثارا استياء زينة كثيرا؛ فوبختها همسا وقبل أن تستمع منها لأعذارها بادرت الرجل الهدف الذي بدا بدوره مستعدا لما تقوده زينة إليه بعد أن التهم جسد داليا بعينيه عدة مرات:

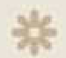




- أصل داليا كان عندها تصوير بقالها أسبوعين علشان كده شكلها مرهق، بس لما عرفت مين ضيوفي الليلة صممت تيجي..

الحقيقة التي أخفتها زينة أن داليا لم تكن فنانة بالمعنى المعروف وإنما أقرب ما تكون إلى كومبارس متكلم اقتصرت حياتها الفنية على عدة مشاهد عابرة غالباا ما كانت تظهر فيها في دور فتاة ليل مع أخريات هو عشيقة لزوج خائن، كل ما تفعله أن تقوم بإغراء بطل العمل الفني في مشهد وحيد يجمعهما في الفراش بينما تتنقل في حياتها الخاصة من فراش منتج إلى سرير مخرج لتؤدي نفس الدور طمعاا في مشهد أطول وأكبر على الشاشة هو لعلها تنطق بحوار بدلا مما تؤديه دوما من ضحكات خليعة، بعد أن يهمس البطل في أذنيها بكلمات لا يسمعها المشاهد لزيادة مساحة الإيحاءات الجنسية..

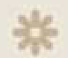




ظلت على حالها التعس لسنوات حتى ذاع صيتها منذ شهور قليلة عندما ظهرت في مشهد طويل نسبياً مع أحد نجوم الكوميديا وأضاف لها كاتب السيناريو جملتين بعد أن أشبعت غريزته قبلها بليلة واحدة، فعرفها الجمهور وصارت الأغلبية تردد عبارتها التافهة التي نطقت بها في فيلمها الأخير، بعدها التقطها مخرج الإعلانات الشهير مستغلا وميض الشهرة الذي أحاط بها قبل أن يخفت فقد كانت وقتها تضيء بوهج للحظات كالشهاب وسرعان ما ستهوي معتمة فلا تتبعها الأعين، التي كانت معلقة في السماء كي تراقبها، كانت الموسيقى قد ارتفع صخبها فهمست داليا في أذن زينة:

- **عملتي إيه في موضوعي..**

ربتت زينة على فخذها مطمئنة إياها ثم أطالت النظر في عمق الحانة، فهرع النادل



زين إليها على الفور وسرعان ما هرول عائدا، وهو يسبق مدحت المعداوي بخطوتين..
لم يرفع مدحت بصره عن فخذي داليا البرونزيين اللامعين منذ الوهلة الأولى، أعطى أذنيه فقط لزينة بعد أن نادته غريزته فترك باقي حواسه تحوم حول داليا، كانت الخمر قد تمكنت منه فصار لسانه ثقيلا، ولم يعد يحسن تقدير المسافات فكاد يدفن رأسه في صدرها الناهض وهو يحادثها من شدة التصاقه بها، ابتسم لها في بلاهة وهو يصب كأسا له وأخرى لها، معطيا ظهره لزينة التي كادت تستشيط غضبا فقالت بلهجة مؤنبة:

- دي داليا اللى حتجيلك العيادة يوم السبت ومعاها الـ 5000 جنيه اللي طلبتهم..

تعمدت إحراجه فأتت خطتها ثمارها وابتلع مدحت الطعم متراجعا خطوة وذهنه مشوش حائر بين طمعه وغريزته حتى مالت كفة الأخيرة فقال مبتسما:



- أنا خدام الإنسانية من غير فلوس...

تعالت ضحكة مصطنعة من زينة وأخرى مبتورة يشوبها الأسى ويعتصرها الحزن من بين شفتي داليا، بعدها راحت زينة تعدل وتبدل من خطتها فطلبت من مدحت أن يشاركهما السهر على طاولتها فلم يتردد ثم أدارت رقمًا على هاتفها المحمول للاستعانة بصديقة أخرى بديلة ممن يتمنين السهر بصحبتها لتقدمها لضيفها الثري الذي بدا ضيقا عصبيا بعد ما استعد للمشاركة وهيأ غرائزه وحواسه كلها فطُلب منه في اللحظة الأخيرة أن يظل احتياطيا لمدحت المعداوي، وكأن زينة قد أمرته كقائد عسكري صارم يصيح في جنوده: **كما كنت**.. فالتزم!!

*****

بمجرد أن استقر الشيخ عبد الموجود في مجلسه على أريكة بالية حتى تفرس في





وجوه الحاضرين ثم علا صوته بنبرة آمرة:

- إنت يا أخ محمود اقترب مني أكثر، والأخ علي تفضل واجلس أنا بجواره، أما أخونا المخضرم عثمان فليعد إلى الصف الخلفي..تقدم يا عبد الوهاب لماذا تبدو شاردا مهموما خيرا إن شاء الله...

اتكأ عبد الوهاب على يديه وركبتيه ومضى يحبو متقدما الصفوف حتى اقترب من أمير جماعته فبدا وجهه ذابلا وعيناه تائهتين وهو يتمتم:

- لا شيء يا مولانا أنا بخير الحمد لله..

ظل الشيخ يعبث في مسبحته وهو يتفرسه بنظرات ثاقبة متمتما:

- لايحمد على مكروه سواه على هي حال..

ثم أشاح عنه ومضى يلقي عليهم الدرس الأسبوعي عن تحريم مصادقة الأقباط هو تحيتهم هو تهنئتهم بأعيادهم، وحينها انفعل قائلا:



- فالمهنئ يتشبه بهم في عبادتهم، ونحن لا نؤمن بهذه العبادة أبدا و كل هذه الأعياد الدينية تخص أصحاب من يتبعون دينا غير ديننا، والدين عند الله الإسلام فلا يحل لنا تهنئتهم، وإلا نعد آثمين مشاركين معترفين بكفرهم والتهنئة أنا حرام..حرام.. حرام..

تطرق الدرس بعد ذلك إلى تحريم العمل بالحكومة بناء على سؤال من أحد مريديه. فأفاض في الشرح وقرب النهاية كان صوته قد علا وتشنج وجهه بعدما اندمج تماما فنفرت عروق رقبته زاعقا:

- ومن يعمل في وظائفها فهو آثم، ومن يدفع الضرائب لها فهو آثم، ومن يستحسن أداءها فهو آثم..هذه الدولة دار كفر تسن قوانين وضعية ولا تحتكم إلى كتاب الله هو سنة رسوله، وتعترف بالنصارى ولا تطبق عليهم الجزية وتتحالف مع الأمريكان والصهاينة..





مضى مسترسلًا مكملًا ما بدأه وقبل أن يختتم درسه، رأى أنه من المناسب أن يعرج بالحديث عن أنهار الخمر بالجنة ليلطف وقع كلامه عن التكفير عليهم، ارتفعت يد أحدهم طالبا السؤال فلما أذن له الشيخ، سأله عن موقفهم من الانتخابات الرئاسية ولمن من المرشحين يعطون صوتهم.. أطلت ابتسامة ساخرة من بين شفتي الشيخ، وهو يجيبه باستنكار أقرب إلى اللوم:

- وهل من بينهم مرشح إسلامي يا أخ علي؟

قبل أن يتلقى جوابا من علي هو أقرانه أردف:

- هؤلاء علمانيون لا يطبقون شريعة الله، والإمامة لا تنعقد لكافر وإذا ما بايعت مبارك هو غيره فأنت أقرب للكفر من الإيمان..

ثم علت نبرة صوته محذرة مهددة تلك المرة وهو يضيف:





- بل لو رضيت بحكمه الجاهلي العلماني فتنطبق عليك الآية الكريمة:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾

.. ومن ثم أنا أدعوكم بل آمركم بالمقاطعة فهذا من قبيل الإنكار بالقلب وهو أضعف الإيمان..

كانت الوجوه أمامه ناصعة مشرقة في أغلبها لشباب ناضر في عمر الزهور، يحملون قلوبا صافية بين ضلوعهم، ولكنهم باتوا كالعود الأخضر الذي صارعلى وشك أن يلتوي بسهولة على الشر؛ تقليدا أعمى لشيوخهم وأمرائهم، تراصوا على حافة التطرف يتأهبون للانزلاق برفق فرادى وجماعات كالقطيع، تدفعهم عقول مغيبة جوفاء وثقافة منعدمة فانطبع على وجوههم تجهم وكأنهم شحنوا به وتغذوا عليه حتى امتلئوا وثملوا تماما..







قبيل الختام راح يقلب في حقيبة بلاستيكية سوداء بجواره ليخرج منها أوراقا مطبوعة وكتبا قديمة، وهو يسألهم عما إذا كانوا قد قرأوا ما وزع عليهم في الدرس السابق فأجابوه جميعا بالإيجاب عدا عبد الوهاب بدا مترددا، وهو ينقل بصره بينهم ولم يرد..

- لماذا لم تقرأ يا أخ عبد الوهاب؟

قالها الشيخ بنبرة مؤنبة.. أجابه وهو يتلعثم قليلً:

- الحقيقة أنا بدأت ولم أنته بعد بسبب كتاب آخر جذبني وأردت أن اكمله..

زام الشيخ وهو يصوب بصره نحوه أكثر:

- إذن فلتقل لنا عنوانه ونبذه عنه لتعم الفائدة...

ارتاحت قسمات عبد الوهاب وهو يجيبه بجزل الأطفال:

- **قصة الفلسفة**.. وكأن الشيخ قد لدغه عقرب

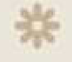


صغير فقد انتفض وسرعان ما لملم نفسه متظاهرا بأنه يعتدل في جلسته، ولاحت ابتسامة صفراء واسعة على شفتيه ولم يعلق ثم أنهى درسه كالمعتاد بالدعاء على اليهود والنصارى ونصرة المجاهدين في كل بلاد المسلمين، وهم يرددون خلفه: «**آمين**» بعد أن حصروا تركيزهم في نهاية الجملة دون تدبير في مضمون الدعاء نفسه، ثم سلموا عليه جميعا مستأذنين في الانصراف..

انتظر يا أخ عبد الوهاب أريدك في أمر خاص..

كانت نبرة صوت الشيخ آمرة أكثر منها راجية فدفس عبد الوهاب ذيل جلبابه من مقدمته بين فخذيه، وعاود الجلوس فلم يكن معتادًا على ارتداء الجلابيب إلا وقت الدروس فقط، وكثيرا ما تعثر فيها وبسببها، تقلبت ملامح الشيخ حتى تجهمت تماما وهو يحدق فى وجه عبد الوهاب الطفولى قائلا بحدة:





- هل تحب دينك؟

بنبرة لا تفتقر إلى الدهشة أجابه:

- نعم.. وإلا لماذا أنا أنا؟!

- هل تؤمن بالعقائد والغيبيات والمقدسات؟

- طبعا يا مولانا هذا أمر لا يحتاج إلى سؤال؟!

قالها عبد الوهاب وهو يبتسم في تبسط..

- هل ترضى أن يشكك أحد في ديانتك ومعتقداتك؟..

راحت الابتسامة من وجهه وهو يجيب:

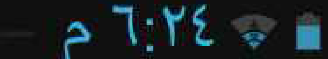
- بالطبع لا أقبل.

- وما رد فعلك إذا ما شكك أحدهم في ديانتك هو في البديهيات والحقائق المعلومة لنا بالضرورة؟

ارتسمت ملامح الجدية على وجه عبد الوهاب قائلا بحماس: **أتصدى له بكل قوة كما علمتنا وأناقشه وأحاول أن.....**







قاطعه شيخه بحدة:

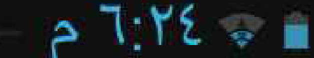
- **بل تقتله إن استطعت..**

تراجع عبد الوهاب برأسه قليلً وقد بهت من الجملة فأردف الشيخ:

- **هذا كافر ومرتد لا استتابة له ويجوز قتله شرعا.. اسمعني جيدا يا عبد الوهاب أنت طيب القلب، ولكنك ضيق المعرفة قليل الخبرة فالفلسفة التي تقرأ فيها تقوم والعياذ بالله على الشك ثم تسري في وجدانك وتتملكك عندما تتعلم الشك في المعتقدات والعقائد والبديهيات التي تحبها وتؤمن بها وتقدسها.. هذه فرية اخترعها الغرب وروج لها وتبعه فيها العلمانيون عن جهل ثم عن عمد؛ ليضعوا لنا السم في العسل، فحق عليهم قول ربهم فمضوا في ضلالهم يعمهون.. صدق الله العظيم..** رددها خلفه عبد الوهاب دون أن يفهم معناها ظنًّا منه أنها آية كريمة وهو





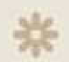


يشعر برعشة تدب في أوصاله لم يفلح في التغلب عليها وزادت وتيرتها مع بريق نظرات شيخه وكأنه يؤججها.. ثم ابتسم الشيخ ابتسامة حانية وقد اكتست نبرة صوته بود وهدوء:

- دعنا الآن من الفلسفة وقل لي ماذا بك؟ أنا أكاد أجزم أنك لست على ما يرام..

ظلت عينا عبد الوهاب تلك المرة تلمعان بدموع حبيسة لم يقو على مقاومتها طويلا، فانهمرت كالسيل فجأة أمام نظرات شيخه النارية الثاقبة الذي لا يكل من إطلاقها صوبه كل فترة، ثم احتضنه بقوة وهو يربت عليه بكفيه الكبيرتين ويتمتم بعبارات غير مسموعة، مستعيذا من الشيطان الرجيم، بينما عبد الوهاب ينتحب بصوت مكتوم؛ لينتفض جسده السمين بشدة، ولم يتركه الشيخ عبد الموجود إلا بعد أن هدأ تماما وروى له بالتفصيل قصته مع مريم من البداية آملا أن





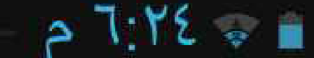
يضع شيخه نهاية لها.!

*****

صعدت مريم الدرج في تكاسُلِ سيدةٍ عجوز حتى ارتقت سطح بيتها، واقتربت من كشك الحمام الخشبي، وهي تتأمله كعادتها في ضيق.. تخيلت لوهلة أن الطير يكاد ينطق، كانت إحداها ترفع رقبتها في حركة عصبية مفاجئة وتشدها للوراء قليلاً ثم تميل بعنقها جهة اليمين تتفحص مريم بعينها الدقيقة ثم تخفض منقارها بغتة وتعاود التقاط الحبوب في حذر، اقتربت مريم منها أكثر فأبطأت الطيور من حركتها وصارت أكثر حذرا، دبت مريم بقدمها بشدة فجأة، تزحزحت حمامتان للوراء قليلاً ورفرفت أخرى وهي واقفة، أطلت من عيون الطير دهشة عارمة هو هكذا خيل لمريم فعاودت الكَرَّة لتحثهم على الطيران فباحوا لها بهديل مكتوم أشبه بنواح

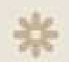






العاشقين، ولم يحركوا ساكنا، وكأنهم فقدوا القدرة على التحليق وصاروا طيورًا داجنة وبدا التحليق كأنه مُحِيَ من ذاكرتهم تماما، جن جنون مريم فراحت تدب بكلتا قدميها في عصبية ولكن الطير أبى أن يبرح مكانه، والتصقوا بعضهم ببعض ثم تسمروا في مكانهم وهم يميلون برقبتهم قليلاً.. شعرت لوهلة أنها تكاد تفهم هديلهم.. كأنهم يقولون لها في أسى **إن حالك من حالنا فلماذا تصرين على نكء جراحنا..؟!**

زفرت وتنهدت في يأس فلمعت عيون الطير ورفرف في موضعه وكأنه يواسيها فترقرقت دمعة في عينيها ثم جرت قدميها الثقيلتين جرا حتى ارتكنت على السور، واتكأت برسخيها عليه كانت شعائر صلاة الجمعة قد انتهت، قفز إلى ذهنها فجأة مشهد المغادرين لقداس الأحد، الوجوه واحدة كلها متشابهة تخشع لدقائق معدودات وسرعان ما تعود



لطبيعتها وكأن شيئا لم يكن..
ابتسمت في شجن وهي تلمح أباها من بعيد يغادر المسجد بعباءته البنية الداكنة الشهيرة، وطاقيته البيضاء ذات الفتحات الضيقة..
تذكرت عندما كان يصطحبها وهي شابة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها كل أحد لصلاة القداس الأسبوعي مرتديا بدلة سوداء متحررا من رابطة العنق كعادته، كان حريصا على حضور القداس مثل حرصه على صلاة الجمعة التي لا يؤدي غيرها، لمحت على مقربة منه جارهم النقيب بالقوات المسلحة، وهو يخترق صفوف المغادرين بزيه المموه ليلتصق بأبيها محييا إياه بحرارة، غابت ابتسامتها وحل محلها الضيق يزاحمه التوتر وهي تراقب أباها محاولة أن تستشف من إيماءاته وحركات جسده ما يريح قلبها ويزيل عن كتفيها همومَ الخلاص من هذا





الشاب الصبور الذي لا يكل ولا يمل أبدا ويصر على هدفه بإلحاح غريب فلم تفلح، فقد كان ستيقي مرحبا ودودا محتفظا بابتسامة بلاستيكية يشهرها في وجه الجميع بلا استثناء، تحسست صليبها الذهبي الذي ورثته عن أمها والمُدَلَّى من رقبتها حتى منتصف صدرها، والتي تحرص على خلعه قبل مغادرتها المنزل خوفا من أن يلحظه أحد خاصة عبد الوهاب.. إلى متى ستظل تعبد ربها في الخفاء وكأنها خطيئة أن تتمسك بديانتها التي فطرت عليها، توارت خلف ستائر خوفها وسرت رعشة خفيفة بيدها فتشبثت بأناملها بطرف الصليب من فوق ملابسها؛ لتحتمي به وضغطت عليه بقوة وراحت تتمتم بصوت مسموع : **كثيرون في دور العبادة بأجسادهم.. قليلون مع الله بقلوبهم..!**

*****

كعادته كل جمعة كان ستيقى يحتفظ



بعملات ورقية فئة الجنيه، يوزعها بانتظام عند باب المسجد على الشحاذين الذين تنشق الأرض عنهم فجأة، صافح من حوله من المصلين وهو يغادر مغلفا بدعواتهم ثم ترجل مخترقا شارع القسم عارجا نحو حانوته، لدهشته كانت زوجته منيرة قد سبقته وأيضا غالبية صبيان المحل، ألقى السلام عليهم مستفسرا عن مكان أدائهم صلاة الجمعة فأجابته منيرة بلهجة حازمة:

- أنا فرشتلهم وصلُّوا أنا جماعة عندنا شغل كتير النهاردة، تعالى يا منير على المكتب أنا عاوزاك في كلمتين...

مضى خلفها صاغرا وهو يقبض على ذيل عباءته بكفه في عصبية مكتومة طالبا من أحد صبيانه أن يجهز له الشيشة ومقعدًا خشبيًّا أمام المحل..

- إنت سحبت امبارح 6000 جنيه من الخزنة



وكتبت في الدفتر انها مصاريف دعاية، بتوع إيه دول؟ جوازة عرفي جديدة؟!

تنحنح ستيقي ثم أجاب بعينين زائغتين:

- ما انا مضيت في الدفتر اني أخدتهم.

- أنا مش بسألك مضيت ولا له.. أنا بسأل في إيه صرفتهم؟ ودعاية إيه دي؟

حلت لهجة منيرة العصبية عقدة لسانه فأجابها على الفور:

- مصاريف انتخابات رابطة العاملين في غرفة السياحة.

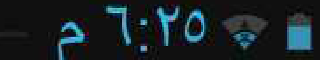
مطت شفتيها في امتعاض ودونت شيئا في الدفتر أمامها قائلة في نبرة حاسمة دون أن تنظر إليه:

- أبوعدنان قالي كده برضه وأنا اتفقت معاه إن لو طلع كلامه صح حتتحملهم من نصيبك لوحدك، الانتخابات دي ملناش دعوة بيها..

- الانتخابات دي لو كسبتها حفضل في شغلى والشغل بيجيب فلوس، والفلوس







بشتري بيها بضاعة للمحل وأنا...

لم تمهله منيرة في الاسترسال وتركته مغادرة إلى أسفل، منادية أحد صبيانها وسرعان ما علا صوتها عندما لاحظت تغيير مكان عرض العباءات جاءها رد العامل خفيضا:

- الحاج منير هو اللي طلب كده امبارح يا حاجة وانا عبد المأمور..

اخترقت أذنيه عبارتها المنطلقة كالسهم الناري:

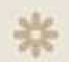
- رجعوا كل حاجة في مكانها..

مرت ساعة وهو جالس يدخن شيشته في هدوء والعمل يسير على قدم وساق، من خلال منيرة التي لا تكف عن إلقاء أوامرها بحدة وعصبية وحزم طوال الوقت.. مضى يتأملهم وهم يباشرون أعمالهم.. أخرج دخانا كثيفا من أنفه وهو يهز رأسه متسائلا مع



نفسه.. **لماذا لا يكونون على نفس القدر من النشاط والإخلاص في العمل عندما تغيب منيرة؟** لم يشك لحظة في إخلاصهم له هو طاعتهم لأوامره ولكنهم يتراخون قليلاً معه بينما ينتفضون لمجرد رؤية منيرة هو أبي عدنان.. تدب فيهم روح مختلفة يغلب عليها الخوف والخنوع بينما تشع نظراتهم بطمأنينة في وجوده رغم أن شريكيه ليسا ودودين مثله، هل أخطأ بتدليلهم هم أنهم يرونه ضعيفا لصبره على سخافات منيرة وشريكهما الثقيل أبي عدنان؟! كبرت علامات الاستفهام في رأسه وتربعت علامات التعجب أمام عينيه فأعيته على الفهم وأفقدته القدرة على الرؤية فاستمر ينفث دخانه لتتكون سحب متقطعة متراصة فوق رأسه أشبه بتيجان كبيرة عريضة وكأنها تتوجه للحظات على عرشه فينتشي من داخله وسرعان ماتزول وتتبخر فى الهواء.. قطعت منيرة حبل أفكاره بصوتها





المبحوح وهي تقبض بكفها على ظهر مقعد خشبي لتجلس بجواره قائلة بنبرة لا تخلو من الحدة:

- إنت ليه مش بتفاتح مريم في موضوع العريس؟..

نفث دخانه في وجهها وكأنه يحاول أن يبعدها عنه ضيقا بها وبأفكارها، فلم يكن لديه ما يقوله بعد أن رفضت مريم أكثر من مرة مجرد لقاء هذا النقيب الشاب الذي يعمل ضابطا بالقوات المسلحة، ويريد أن يتزوجها عن قناعة بأنها طيبة وجميلة وملتزمة دينيا، ولكن المشكلة أنه مسلم ولا يعرف حقيقة ديانتها بعد، ولم يجرؤ ستيڤي على مصارحته ولم يستطع أن يضغط على مريم لتغير ديانتها، فقد كانت تتمسك بها بشدة..

ظل يتفرس وجه منيرة ولا يجيب ويهز رأسه مستنكرا، فبادرته وهي ترفع أحد حاجبيها





كعادتها:

- انت بقيت زي الحيطة المايلة في كل حاجة، لو مش قادر تتكلم معاها سيبهالي وانا اخلص الموضوع كله في يومين اتنين، انت اصلك مدلعها ومش عارف...

أشار لها بكفه بأن تصمت ووضع الشيشة جانبا وهو يقول بصوت ضعيف متردد:

- احنا متفقين من أول يوم انك ملكيش دعوة بمريم ابعدي عنها وهيه تعمر، أنا حتصرف معاها بطريقتي..

فجأة ظهر أمامه أبو عدنان وبصحبته رجل في ملابس مدنية لا تنبئ سحنته بأي مودة رمق منير بنظرة ثاقبة ثم تجاوزه دون أن يحييه متتبعا أبا عدنان ومنيرة إلى الطابق الثاني وسط ترحيب مبالغ فيه من صبيان المحل، وسرعان ما لحق بهم منير دون أن يدعوه أحد..

- بس الكمية دى كبيرة يا باشا 10.000





طرحة و5000 عباية، واحنا تجارتنا صغيرة وفي تجار غيرنا في السيدة..

أشعل الرجل سيجارة في برود بعد أن فرغ من تناول الشاي وهو يستمع إليهم، وجال ببصره بين ثلاثتهم ثم وجه حديثه لمنيرة:

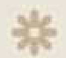
- مرشح الحزب عن العمال محتاج أصوات كتيرة ومحدش حيقدر يعمله حاجة غير الجماعة دول لأنهم منظمين وعندهم كتلة تصويتية، وبعدين دي أوامر عُليا يا حاجة ولو مش عاوزة انتي حرة ذنبك على جنبك..

وأردف وهو يهم بالقيام:

- بس محدش منكم يجيلي القسم يعيط بعد كده ويقولي المحل اتسرق ولا اتحرق..

استمهله أبو عدنان برفق ليجلس طالبا منه أن يكون رحيما بهم فنحاه الضابط في غلظة قائلا بخشونة:

- وهو انا يعني كنت حاخد منكوا البضاعة



ابيعها، ما هي حتروح للبيوت اللي رجالتها حتصوت لمرشح الحزب، وكله مصلحة ليكم..

أنهى عبارته وألقى ببقايا سيجارته على الأرض بعدم اكتراث وغادر بعد أن أمهلهم أسبوعين لتدبير الكمية المطلوبة... زفرت منيرة في ضيق، بينما راح أبو عدنان يسب ويلعن في الحزب والانتخابات والمرشحين، في حين كتم ستيقي ضحكة تشف نابعة من أعماقه، ولسان حاله يكاد ينطق..

- ناس تخاف ولا تختشيش.

ثم أخرج هاتفه شارعا في إجراء اتصال بالعقيد حسين عناني، بينما انشغل أبوعدنان ومنيرة في البحث عن فائدة عاجلة مستحقة نظير هذه الجزية التي فرضها الضابط عليهما واختلفا فيما بينهما هل تكون تهربا ضريبيا، هم جمركيا؛ ليعوضا خسائرهما إلى أن انضم ستيقي إليهم فاتفقوا ثلاثتهم على أن تشاركهم الدولة فى مصيبتهم بنصيب الأسد





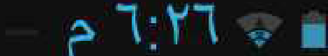
فتهربوا من الضرائب المستحقة عليهم، وأدخلوا بعدها بضائع كثيرة بدون جمارك، ثم حرصوا يوم الانتخابات البرلمانية على المشاركة بحماس والتصويت لصالح مرشح الحزب، وكأنهم يوقعون بأسمائهم بسجل التشريفات لإمارته الجديدة على حي السيدة زينب مهللين شاكرين.

*****

كان صابر منتفخ الأوداج بالطموح والأمل في بيت وزوجة وأطفال ومستقبل مشرق وبعد أن امتلأت جيوبه صار بخيلا، يائسا، محبطا أكثر مما كان، فجبن على أن يخطو خطوة أخرى نحو استقراره بعد أن أعماه الطمع، كعادته حين يتحدث يتجنب النظر في وجه محدثه كأنه يتحاشاه، ينفعل بلا مبرر فجأة ويتلعثم أحيانا فيضغط على مخارج ألفاظه وهي تنساب ببطء من بين شفتيه

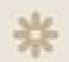






الرفيعتين.. غادر بيت أسرة خطيبته لا يلوي على شيء، مضى شارد الذهن بعد أن عادت مفاوضاته معهم إلى نقطة الصفر قرر وقتها أن ينهي الموضوع برمته ولكن دون مواجهة صريحة.. يختفي من حياتهم، لن يرد على اتصالاتهم ولن يجلس معهم.. كأنه لم يكن، ارتاح لهذا الحل وشعر بأنه تخفف من حمل ثقيل كان يجثم على كتفيه.... أصابه سعار مفاجئ ووجد أنه سوف يضحي بحياته وحريته دون أن يحقق ما يضمن مستقبله..طلب من أهل خطيبته تأجيل الزواج ثلاثة أعوام على الأقل حتى يشتري التاكسي ويسدد أقساطه فهو يخاطر في مغامرة كبيرة إن ظل يتاجر بالمخدرات وهو متزوج وقد يرزق بطفل.. لم يقو على شرح ما يجول بخاطره من هواجس ومخاوف ومشاعر متباينة وأفكار مشوشة، فبدا مرتبكا للغاية فذهب غير مأسوفٍ عليه..







في الطريق انتابته صحوة ضمير مفاجئة لم يكن قد عمل حسابا لها فاستدعت دموعه على عجل؛ لتكتفي بدورها بالترقرق في عينيه دون أن تنهمر، واكتفى هو بهذا القدر منها متملصا من الصحوة المباغتة متعمدا دفنها بأعماقه هاربا إلى ترسيخ أقدامه على أرض واقعه.. أفاق على رنين ملح من هاتفه أخبره المتصل بضرورة حضوره إلى عنوان محدد بشارع 26 يوليو بالزمالك، فانطلق على دراجته البخارية إلى طريقه المختار والهواء البارد يلفح وجهه بعنف حتى كاد يغمض عينيه من شدته، فلا يرى الطريق أمامه بوضوح.!!

تأمل لافتة المحل القديمة التي تحمل اسم **أبو عيدة»** بحروف بارزة كبيرة ثم دلف في ثقة، استقبله أحد رجاله في غلظة فتبخرت ثقته على الفور ثم اصطحبه إلى الدرج



الخشبي المؤدي للقبو الصغير أسفل المحل، هناك و بسهولة شديدة استطاع أن يتعرف على أبي عيدة من وسط الجمع الذي كان يحيط به من رجال متفاوتي الأعمار والأشكال، كانت له هيبة ملحوظة وهالة تحيط به رغم قصر قامته وترهُّل جسده، وقف ينتظره على مقربة حيث كان أبوعيدة يتفحص بدقة جيبًا علويًّا لجلباب يرتديه رجل متوسط العمر نحيف كالبوصة ومبتور الذراعين تماما، كان الجيب عريضا للغاية يكاد يغطي مقدمة الصدر..

رجع أبو عيدة خطوتين للخلف فبدا كفنان يتأمل لوحته قبل أن يضع عليها لمسته الأخيرة.. ساد صمت وترقب لثوان ثم تقدم أبوعيدة وملأ الجيب بأوراق نقدية متنوعة حتى صار مكتظا تماما ثم طلب من أحد مساعديه أن يحصيها..

- 150 جنيه يا معلم..



هز أبو عيدة رأسه غير قانع طالبا توسيع الجيب أكثر ثم التفت إلى صابر فجأة رامقا إياه بنظرة ميتة باردة، علا من الخلف صوت أحد رجاله:

- ده الواد صابر اللي بعته المورد علشان يوزع في الزمالك كلها بحري وقبلي..

تجاهله أبوعيدة متوجها إلى خارج المحل فلحق به صابر بعد ثوان وهو يلهث من جراء ارتقائه درجات السلم على دفعتين في لهفة متوجسا خيفة أن يرفض التعامل معه.. كان صابر قد رغب في مضاعفة الكمية التي يوزعها بعدما زاد عدد زبائنه، وأن يعمل منفردا فأبلغه المورد أن الزيادة والكلمة العليا من اختصاص رئيس المنطقة الذي لم يكن سوى أبي عيدة نفسه فهو يمارس أنشطة متنوعة ولا يظهر إلا وقت الضرورة فقط..

- روح دلوقتي وتعالالي بكرة في نفس المعاد





أكون قلّبت الموضوع في دماغي..

قبل أن يفيق صابر من برودة اللقاء عاجله أبو عيدة بكلمتين وأدتا كل محاولاته في استكمال النقاش:

- مع السلامة.

*****

فتح فؤاد عينيه ببطء كان رأسه ثقيلًا للغاية، وجد نفسه ممددًا في فراشه يرتدي ملابسه كاملة بلا حذاء، أصابته الدهشة فاعتدل في مرقده وهو يفرك عينيه بقوة وكمن لدغه عقرب انتفض فجأة متجها نحو سترته المعلقة بالقرب من سريره، وهو يلهج من الانفعال والتوتر، عبثت أصابعه في عصبية بجيوبها وسرعان ما ارتاحت قسمات وجهه فعاد بخطى بطيئة هادئة إلى فراشه ممسكا بحافظة نقوده التي كانت سليمة لم تمس، تنهد بعمق فقد ظن أن الفتاتين قد سرقتا الحافظة وهربتا، جال ببصره فى الغرفة كانت



مرتبة وكل شيء في موضعه، لاحظ وجود ورقة بيضاء كبيرة موضوعة بعناية في مرمى بصره على منضدة قريبة التقطها مبتسما!، وهو يقرأ ما دُوِّنَ عليها بأحمر شفاه قانٍ، كانت تحوي رقم هاتف وأسفله قبلة مطبوعة من شفاه رفيعة وتحتها توقيع يقرأ.. **فؤادة**..

ضحك على سخريتها من اسمه ثم طوى الورقة بعناية في حافظته.. اطمأن إلى أن المنزل لم يُسرَق منه شيءٌ، ثم هرول إلى غرفة والدته إثر سماعه سعالها وذهنه مشغول بصاحبة القبلة.. **يا ترى كانت هي فتاة منهما**؟!

أعان والدته المسنة على دخول دورة المياه بعد أن وبختـه لتركها ساعات طويلة مع هاجر..

- دي بنت عبيطة يا فؤاد وبتضحك من غير سبب شوف غيرها أرجوك..

وعدها بأنه سيتدبر الأمر قريبا ثم نظر في





ساعته كانت تقترب من الواحدة ظهرا، فأخذ دشًّا بارداا وارتدى ملابس خفيفة متوجها كعادته لنادي الجزيرة ليلعب الجولف، في طريق خروجه انحرف يسارا نحو غرفة البواب محروس كان بابها مواربا دفعه برفق فلمح ساقا أبنوسيـة رائعة وأنامل رقيقة تمتد لتنزع أشواكه، اتسعت عيناه وهو يتأمل فخذي هاجر بعد أن انحسر عنهما سروالها، تنحنح قليلً فانتفضت من قرفصتها فزعة، وهي تشهق محاولة مداراة ابتسامة خجل أنثوية قفزت لشفتيها فجأة، عبثت بيدها عن طرحتها مثبتة بصرها على وجهه، وهو لا يبرح مكانه ويبتسم في رضا كمن أعجبته لوحة فقرر اقتناءَها بعد أن تأملها مليًا، واستقر على الجدار الذي سيعلقها عليه..

استدار فؤاد بعد أن تطرحت هاجر متعمدًا أن تحمل نبرة صوته بعضا من الجدية والصرامة:

- اطلعى يا هاجر بسرعة، ماما لوحدها...





عندما خرج من الغرفة وجد محروس فجأة في مواجهته وقد تجهمت ملامحه، وهو يتفرس وجه فؤاد في ضيق ومن خلفه باب الغرفة مواربا وخيال هاجر يتحرك وراءه فيثير هواجسه أكثر..

- لما تعوز حاجة يا فؤاد بيه ابقى ازعق عليا..

ربت فؤاد على كتفه وكأنه ينحيه -: طريقه جانبا ولم يرد وانصرف بخطوته البطيئة غير عابئ بالبركان المتقد في صدر محروس.. لم تمض لحظات حتى كان صوت صراخ هاجر يملأ فراغ المدخل ومحروس ينهال عليها ضربا بلا رحمة، ولما سألته زوجته عن سبب ضربها لم يجد ما يجيبها به فلم يكن يعرف ماذا حدث، ولكنه يدرك جيدا ما يمكن أن يحدث فاستبق الأمر، وعاقبها ليردعها قبل أن تسول لها نفسها أمرا..





- إنت يا حيوان، انت فاكر نفسك لسه في زريبة بلدكم؟! خرج محروس ليستطلع الأمر، فوجد مدحت المعداوي الذي كان في طريقه لعيادته وراعه الصياح والصراخ المنبعث من حجرة محروس الذي تسمر بدوره أمام مدحت في تحدٍّ متحفزا ولم يرد، فعاود مدحت سبه مهددا إياه بطرده من الخدمة فزفر محروس وهو ينظر إلى السقف العالي مرددا في ضيق:

- اللهم طولك يا روح..

لم يكد يكمل جملته حتى هوت صفعة مدوية على صدغه طرحته أرضا، فلم يكن يتوقعها وهو يقف متراخيا، وفي ثوان قليلة كان النوبي الذي أقبل على عَجَلٍ يحول بينهما بجسده الفارع الضخم دافعاا محروس بغلظة في صدره وهو يكتم فمه ليتوقف عن السباب لمدحت ويلكزه بعنف في صدره حتى أغلق



عليه باب حجرته، ثم هرول خلف مدحت الذي توتر قليلاً يرجوه المغفرة والعفو بينما الطبيب الغاضب يردد بالفرنسية مستنكرا:

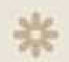
c, est. Impossible ces animaux la.

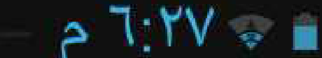
ثم صفق باب المصعد في وجه النوبي في طريقه إلى عيادته لإجراء عملية الإجهاض لداليا خليل..!!

*****

لم ينقض أسبوع على حوار ستيڤي ومنيرة بمحل الملابس، والذي أنهاه كأسد هصور بجملة باترة لحديثها عن زواج مريم من جارهم الضابط، حتى عاد كعادته معها وقد رضخ واستسلم، دبرت منيرة كل شيء واستعد البيت كله لحضور العريس المنتظر ضابط الجيش الشاب الملتزم بعد أن فاتحت منيرة أمه معلنة موافقتها المبدئية، ودعوتهما لجلسة تعارف بسيطة..

أغلق ستىڤى باب غرفتها خلفه برفق، وهو





ينظر إليها وينكسر بصره إلى أسفل رغما عنه أمام نظرات مريم القوية المتحدية.. شعر لأول مرة بأنه يتأرجح بين ديانته الأصلية وتلك المكتسبة، ينبض قلبه بحنين للمسيحية التي كانت تمنحه حرية أكثر من القيود التي فرضتها عليه ديانته الجديدة، وإن كانت قد أضفت عليه هالة ووقارًا بلقب الحاج الذي اكتسبه بدون أدنى مجهود أو سعي!! اقترب ببطء من فراش ابنته وهو يتحسس بيده سجادة صلاة طويت بعناية على منضدة خشبية عالية مرتاحًا لملمسها الناعم، وكأنها وضعت في موضعها لتزين الغرفة لا لتنير قلب مريم، فلم تكن تستخدمها إلا في التمويه على منيرة زوجة أبيها فقط.. ظل يحرك كفه المنبسط في خفة حتى تعثرت أصابعه بجسم صلب أسفلها قلبها برفق كان صليب مريم مطويا بعناية على قلادتها، وضع يده عليه





وأغمض عينيه لوهلة، وكأنه يمسح هاجسًا من ذاكرته ثم خرجت كلماته على استحياء تتوارى خجلا أمام صلابة موقفها:

- معلش استحملي واصبري حتعدي زي كل مرة.. الصبر.. الصبر.

- **ليه دايما الصبر من نصيبي أنا.. ليه محدش بيصبر عليا.. أنا بقيت حاسة اني بعيش بشخصيتين واحدة بتظهر مسلمة والتانية....**

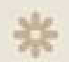
لم يجعلها ستيڤي تكمل عبارتها وضع يده على شفتيها واحتضنها برفق فاستسلمت وانكمشت بين ذراعيه، وهي تجهش بالبكاء ظل جسدها ينتفض وعقلها يموج بالحيرة حتى عجزت عن التفكير والتدبير، فأغمضت عينيها الدامعتين وهي تسير بجواره ببطء حتى وصلا إلى دولاب ملابسها ليختار لها زيا مناسبا بأكمام طويلة كالمعتاد؛ حتى تلقى عريسها فبدت كعروس النيل التى تزف إلى





النهر في احتفالية كبيرة وفرحة عارمة من الموجودين، رغم أنها ستلقى حتفها بعد قليل...!!

دُفعت ضلفتا الباب كأنها ريح صرصر لتظهر منيرة بوجهها المتجهم المؤنب لكليهما على تأخرهما في ارتداء ملابسهما ترقبا للضيف الذي دفعته منيرة دفعا في طريق مريم؛ لتتخلص منها بالزواج، بدت منيرة في عيني مريم كملك الموت وهي ترمقها بنظرات حادة تجلد جسدها بسياط اللوم.. أخفى ستيڤي الصليب والقلادة في جيبه بحركة لا إرادية، وبادلتها مريم النظرات بأخرى حزينة شاردة مستسلمة لقدرها ولكن في لامبالاة.. راحت منيرة تتقدم نحوهما بخطوات بطيئة وهي ترسم ابتسامة صفراء وتبسط كفيها بطرحة حريرية سوداء كاشفة عن أسنانها ذات المفرق قائلة:



- جبت لك دي هدية الفاتحة وفستان فرحك برضه حيكون هدية مني..

أغمضت مريم عينيها بشدة لتحبس دموعها التي تدافعت وراء الجفون كالسيل الضارب في السدود والطرحة السوداء لا تفارق مخيلتها كأنها كفنها.. غادرت منيرة الغرفة فربت ستيڤي على كتفها في حنان متأثرا:

- هانت كلها ساعتين وتقلعي الحجاب.. شوية صبر علشان خاطري..

ارتدت مريم الطرحة في هدوء وبحركات آلية مرتبة، وكأنها خاضعة لتنويم مغناطيسي ولسان حالها يكاد يصرخ:

- غيتيني يا عدرا..

كانت لا تريد خلع طرحتها فقط، وإنما تتمنى أن تخلع أوهامًا كثيرة من مخيلة من حولها وتلقيها بعيدا؛ ليتأملوا معها الحقيقة الغائبة..!

******





عندما وصلت فدوى لمنزلها بمدينة الرحاب نحو الخامسة والنصف صباحاا عائدة من سهرة صاخبة بالحانة مع سعيد النحال..
خلعت حذاءَها بالصالة وهي تترنح في مشيتها من تأثير ما احتسته من خمور، ثم دلفت إلى دورة المياه اغتسلت وغمرت وجهها بالماء البارد عدة مرات ثم أعدت لنفسها كوبًا كبيراا من القهوة، وأشعلت سيجارة وجلست في ركن مظلم ساكنة تحتسيها وتدخن.. قرب السادسة صباحا دخلت إلى غرفة نوم ابنتها الصغيرة ذات الأعوام التسعة فأيقظتها برفق وربتت على شعرها في حنو ومسحت وجهها وقبلتها، ثم عاونتها على النهوض ودخول دورة المياه فقد كانت تعاني من شلل أطفال أصاب ساقها اليمنى ولم تبرؤ منه، أعدت لها حقيبتها المدرسية وبعضا من ثمار الفاكهة ثم اصطحبتها حتى استقلت سيارة المدرسة





ووقفت أمام البيت تلوح لها بكفيها حتى غابت عن بصرها تماماا..

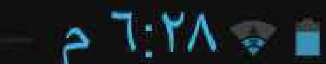
مضت بخطى متثاقلة حتى ألقت بنفسها على فراشها منهكة من الشراب والسهر والتفكير، عادت كلمات عزة الجارحي رئيستها الجديدة بالإدارة البنكية تلح على عقلها كذبابة سخيفة لا تيأس كلما طردتها تعود لتقبع أمامها في تحد..

- ليه يا فدوى ميمضيش على طلبات السحب والتحويل قدامك.. مراته عندها حسابات بملايين وهو الوحيد المستفيد، لازم نتأكد ان ده توقيعه فعلا..

أشعلت سيجارة رابعة والساعة تقترب من السابعة وهي لا تزال بملابس السهرة وحديث عزة يمر أمام عينيها كقطار سريع بعربات كثيرة، كانت تثق في سعيد أكثر من نفسها ثم إنه سلمها توكيلا تسحب بمقتضاه من حسابه وتسلمه له نقدا ودائما ما يكون التوقيع الذى







يقدمه لها صحيحا تقبله خزينة البنك بدون اعتراض.. عاد صوت عزة يتصدر المشهد:

- حتخسري ايه لو عملتي بنصيحتي ما يمكن متفق مع حد بيقلد التوقيعات بدقة..

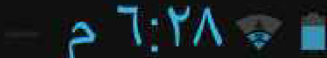
أغمضت عينيها بعد ما أنهكها التفكير واستسلمت لنوم مضطرب على وسادة مبتلة ببقايا دمعات متمردات لايجدي معهن قمع ولا أمر..

في صباح الأحد التالي اتصلت بسعيد النحال وطلبت منه الحضور للبنك لأمر مهم.. ما إن طرق موظف العلاقات العامة باب مكتبها ليدلف منه سعيد والانزعاج يسيطر عليه بعد أن دس ورقة مالية بخمسين جنيها في كف الموظف كالمعتاد، حتى بادرته قائلة بنبرة حانية خجلة:

- معلش يا سعيد بس الإدارة طلبوا تحديث بيانات وصحة توقيع فكان لازم.....







قاطعها بنبرة عصبية غاضبة وقد امتقع وجهه:

- ما انتي معاكي توكيل مني يا فدوى..

تلعثمت وارتبكت وتظاهرت بانشغالها بالبحث عن أوراق تائهة على مكتبها متجاهلة عتابه، فعلت نبرة صوته مؤنبا ومستاء ومهددا بالانصراف، فأثار شكوكها أكثر وعادت عبارة رئيستها عزة تتصدر المشهد بقوة، فاستجمعت رباط جأشها، وحسمت أمرها وهي تمد يدها إليه بورقتين قائلة بحسم استدعته من ذاكرة بعيدة:

- أرجوك وقع أنا يا سعيد توقيع البنك أربع مرات علشان يعملوا مطابقة، وإلا مش حقدر اصرف من حسابك مليم واحد بعد كده..

سادت فترة صمت ثقيل لم يعد يُسمع فيها إلا صوت تنفسها العالي من جراء توترها، وزفرات غضبه بسبب ضيقه وهو يحدق في



وجهها بنظرة لم تألفها منه ثم أخرج قلما من سترته، وأطبق عليه بقبضتيه وراح يصوب نظرة حادة غاضبة إليها فترتعد فرائصها وكأنها المريبة، أغلق قلمه بهدوء ثم دفع إليها بالورقتين دونما توقيع قائلا بحسم:

- أنا رايح اقابل مديرتك وتوقيعي حيكون في مكتبها وحسابنا بعدين..

وتحرك صوب الباب مغادرا قفزت أمامه في خطوتين، والدموع تكاد تفر من عينيها والجزع يغزو ملامحها بسرعة:

- أرجوك متزعلش مني أنا واثقة فيك بس الإدارة.....

لم يدعها تكمل ما تقوله وأزاح كفها بعيدا عن ذراعه وخرج يسير بخطى سريعة في الردهة فهرولت خلفه محدثة جلبة بكعب حذائها حتى لفتت أنظار السعاة وموظفي العلاقات العامة، فهبوا واقفين لتحية سعيد النحال مستفسرين من فدوى بأعينهم مما يحدث



أمامهم وهي تناديه بصوت متحشرج:

- أرجوك يا سعيد اديني فرصة علشان افهمك..

لم يرد ولم يلتفت خلفه كانت سحب الغضب تغطي وجهه بكثافة وهو يسرع الخطى، حتى دلف إلى مكتب مديرتها عزة الجارحي دون أن يلتفت إليها، في حين وقفت هي تلهث في يأس ثم عادت بخطى ثقيلة تجر أذيال الخيبة في أسى، تجرأ أحد موظفي العلاقات العامة قائلا..

- في حاجة يا مدام؟

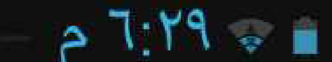
نظرت إليه بوجوم ثم مضت إلى حجرتها..

بعد نصف ساعة وصلها الرد من عزة الجارحي:

- سعيد جالي يا فدوى، والحمد لله التوقيع صحيح ومطابق لكل التوقيعات السابقة.. وأنا اعتبرت إنه مضى في مكتبك علشان محدش







يحس بإن فيه حاجة غريبة بتحصل.. كان لازم تبقى أهدى من كده يا فدوى.. الحمد لله إنها عدت على خير.

تهلل وجهها قليلاً ثم حاولت الاتصال به مرات عديدة ولكنه لم يرد، أرسلت عشرات الرسائل التي تعتذر فيها وتقر بخطئها فلم يستجب، وقرب نهاية اليوم قبيل مغادرتها البنك اتصل بها على هاتف مكتبها، ردت ودموعها تسبق لسانها الذي يلهج بالاعتذار والندم في آن واحد.. كان سعيد على عكس توقعها باردا هادئا لطيفا ودودا كأن شيئا لم يكن، أخبرها بأن زوجته ستجرى جراحة عاجلة بعد أسبوعين بألمانيا وهو ما جعله عصبيا معها وطلب منها أن تسحب كل الرصيد المتبقي بموجب التوكيل الذي معها بعد تحويله لعملة صعبة وتسلمه المبلغ نقدا غدا...اتفقا على اللقاء بجارسونيرة الزمالك التى يستأجرها منذ عام ويلتقيان بها أسبوعيا





لاختلاس ساعات غرام.. راحت تمسح دموعها وتقبل سماعة الهاتف وتحتضنها حتى وضعتها برفق، ثم ارتدت نظارتها الطبية في حماسة وطرقت بأصابعها في سرعة لوحة المفاتيح رقم حساب زوجته فظهر الرقم أمامها على الشاشة وهو يتزين بستة أصفار عن يمينه، فشرعت في إجراء التحويل لحساب سعيد على الفور دون تفكير.

*****

عندما فرغ من صلاة الجمعة ذلك اليوم لم يذهب إلى محل الملابس كعادته، فاليوم هو الجمعة الثالثة من الشهر فعاد إلى بيته أعد حقيبة صغيرة خاصة على عجل بمطبخه ثم صعد إلى سطح عقاره، مر ستيقي بجوار عشة الحمام وهو يبتسم ثم تجاوزها بمسافة قليلة حتى اقترب من أقفاص الديوك الثلاثة وتفحَّص أوسطها وابتسامته تتسع معلنة عن





رضا كبير بحجمه ومخالبه، مد يده وأخرجه من قفصه وهو يربت عليه ثم بدأ يقلبه بكفيه لمدة ثلث ساعة لينشط دورته الدموية ودهن بطنه وساقيه بخليط من العسل والروم لتزداد قدرته على التحمل وتركه بعدها يستمتع بدفء شمس منتصف النهار لفترة وجيزة ثم عاجله بحقنة مقويات ودسه بعدها برفق في حقيبة جلدية تاركا له طاقة صغيرة يتنفس منها وانصرف مغادرا..

ما إ: اقتربت سيارته من شارع السد بناحية إمبابة حتى انعطف يسارا، وترجل منعطفا في حارة صغيرة ودلف عقارا قديما من ستة طوابق يبدو مهجورا حتى وصل إلى سطحه.. فانقلب الحال تماما.. رجال يروحون ويجيئون، ركن صغير تعد فيه مشروبات ساخنة وثلاجة متوسطة تخرج منها زجاجات بيرة كل فترة.. في وسط السطح تماما أعدت حلبة بدائية على شكل دائرة محاطة ببراميل







قديمة وضعت عليها صناديق فارغة لزجاجات مياه غازية لتصير متكأً للمتابعين، في أركان السطح المتبقية تجمعات قليلة من الرجال وديوكهم يعدونها لعراك وشيك منتظر.. اكتفى ستيقي بتحية من حوله بعينيه ثم استقر في مكان بعيد قليلاً عن الأنظار وبدأ يهدهد طائره وكأنه يحفزه ويعده للنزال.. حديث صامت يدور بينهما لا يفهمه أحد غيرهما من كثرة ما رباه وحبسه وأطعمه ليطلقه في يوم محدد ليرد له الجميل، يجلب له ما يشبع به هوايته القديمة التي ورثها عن والده.

دقائق قليلة مرت ظهر بعدها أبو عيدة واثنان من رجاله وخلفهما محروس يعرج كعادته، ويحمل ديكا شركسياً يبدو شرسا بعد أن قص عرفه الأحمر الناري إلا قليلاً.

تبادل أبو عيدة السلام مع ستيقي ثم داعبه قائلا:





- سقفك أد إيه النهاردة؟

ضحك ستيقي ضحكته المبتسرة ولم يرد مكتفيا بفرد أصابع كفه الخمسة في وجه أبي عيدة الذي علت ضحكاته قائلا:

- تقصد 500 جنيه ولا خايف من الحسد..

لم ينتظر منه ردا وتركه وانصرف مشيرا لمحروس بأن يبدأ في تجهيز طائره فاستجاب على الفور وكأنه مدرب على هذه المهنة منذ زمن قديم مع أنه لم يعرفها إلا من أسابيع قليلة مضت لقاء بضعة عشرات من الجنيهات يحصل عليها من مكاسب أبي عيدة التي تتجاوز آلافًا كل مرة، إذا ما تمكن الطائر من الصمود لثلاث دورات من النزال الشرس ولم يمت..

التقت عينا محروس وهو جالس القرفصاء ممسكا برقبة الديك بعيني ستيقي القابع أمامه، وعلى الرغم من أن أيًّا منهما لا يعرف



الآخر من قبل فقد طلت نظرة كراهية متبادلة بينهما بلا مبرر، تدافعت لمخيلة محروس خواطر غريبة شتت تركيزه، ذكرته نظرة ستيڤي بذات النظرة التي رآها في عيني الثعبان قبل سقوطه من النخلة. في حين كان ستيڤي يراه كالجراد القادم من الجنوب؛ ليأتي على الأخضر واليابس ولا يشبع أبدًا..
أخرج أبوعيدة حافظة نقوده مقررا رفع سقف المراهنة إلى ألف جنيه بعد ما تغلب ديكه مرتين هذا الصباح فبات واثقا من فوزه الثالث، قبلها ستيڤي على مضض فهو يتأخر عادة عن المشاركة في الجولات الأولى ليتفحص ديوك الآخرين أولا، دار رجل قصير ممتلئ دميم حول الحلبة بنوتة صغيرة يدوِّن فيها مراهنات الواقفين ويجمع أموالهم في صمت وهم يحددون رهانهم بلون الشريطة الملفوفة على ساق كل طائر، حتى بلغت قيمة المراهنات أكثر من عشرة آلاف جنيه رغم أن





غالبية المراهنين من موظفي الحكومة وبائعي الطيور وبعض الباعة المتجولين وحراس العقارات في المناطق الراقية..

أطلق الرجل الدميم صافرة طويلة بشفتيه تنبه الجميع على أثرها وتركزت أبصارهم على منتصف الحلبة بعد أن أفلت ستيقي ومحروس أيديهما عن رقبة الديكين اللذين راحا يدوران في نصف دائرة يتفحصان بعضهما البعض وهما يميلان برقبتيهما العاريتين من الريش، ورغم أن ديك أبي عيدة بدا منهكا إلا أن تعطشه للدماء كان واضحا، في حين راح ديك ستيقي يراوغ بحذر حتى يستفزه أكثر فيندفع بلا حساب للدفاع عن هجوم مضاد، سرعان ما انقض كل منهما على الآخر في نقار شرس علت معه صيحات الرجال كلما استطاع ديك ستيقي القفز إلى أعلى متجنبا وخزة منقار غريمه، ثم يهبط





بمخالبه على رقبته لينخر جراحه أكثر، ومع
كل قفزة كانت الحلبة تشتعل أكثر حتى علت
حمية الصراع لدقائق تراجع بعدها طائر
ستيقي خطوتين للوراء، لاحت معهما ابتسامة
تشف واضحة على شفتيه، وهو يكاد يصفق
لطائره الشجاع بينما ظل طائر أبي عيدة
متسمرا في مكانه للحظات وكأنه فقد القدرة
على الحركة ثم أطرق بعدها برأسه كمن
سيطعن صدره بمنقاره ثم لاحت بقعة لزجة
من دمائه على رقبته، سرعان ما اتسعت
وقطرت دماؤه منها حتى هوى بعدها الديك
متكوما على جانبه الأيمن بلا حراك..
لطم محروس خده لا إراديًّا وهو يختلس
نظرة متوجسة إلى
أبي عيدة الذي كاد يقطم مبسم سيجارته بين
فكيه غيظا مشيرا لأحد رجاله بإحضار طائر
آخر لاستكمال المراهنات، أطرق محروس
قليلًا وهو يتأمل الديك القتيل ودماؤه تنزف



ببطء شعر لوهلة بأنه سيلقى ذات مصيره يوما ما، سيفترسه الفقر وتنخر عظامه الحاجة حتى تتهشم ضلوعه ويتكوم حطاما بائسا، ارتعش فكاه توجُّسًا فاستعاذ بالله وهو يسحب جثة الديك بعيدا، في حين كان ستيقي في ركنه البعيد مرتديًا قبعة بيضاء كبيرة يعد حقنة من عصير البرتقال مكافأة لطائره المنتصر ثم انشغل بعدها في تضميد جروحه البسيطة ليتحمل ما هو قادم من نزال اشتعلت وتيرته مبكرا ذلك اليوم.. إن كان في عمره بقية.

***

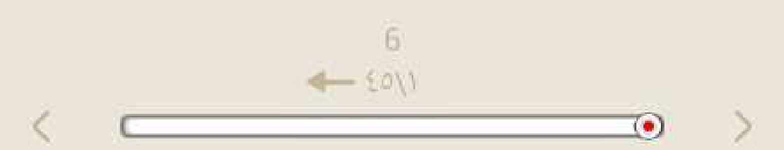






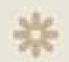
6
جنايات قصر النيل

ابتعد المارة مسرعين من نهر الطريق إلى أقصى جانبيه؛ لتمر ثلاث سيارات شرطة مسرعة تطلق سريناتها عالية فتلفت الانتباه أكثر، حتى توقفت فجأة مزمجرة كوحوش كاسرة قرب كورنيش النيل من الناحية البحرية لحي الزمالك، هرول من صناديقها الخلفية عشرة مخبرين وأفراد شرطة وكأنهم سباع جائعة فُتحت أقفاصها فهرولت تبحث عن فريسة بضراوة، انهالوا ضربا وركلا على باعة جائلين وشحاذين وآخرين ممن لا عمل لهم سوى إجبار قائدي السيارات على التخلى قسرا عن بضعة جنيهات نظير ترك سياراتهم بالطريق العام.. اقتربت سيارة نصف نقل



تابعة لقسم شرطة قصر النيل ليقوم الرجال العشرة بتحميلها بمخلفات الحملة من بضائع الباعة الجائلين في حين حُشِرَ المتهمون من رجال أبي عيدة في سيارة شرطة أخرى لينطلق الموكب مخترقا شوارع الزمالك البحرية في طريقه إلى الجانب القبلي من الجزيرة لتتكرر ذات الموقعة فباتت سيارة الشرطة المكشوفة أشبه بتلك التي تسير في أفراح الريف محملة بأثاث العروس من كثرة ما تم جمعه من غنائم.. عرج الموكب بعدها إلى أقصى جزيرة الزمالك ناحية كوبري قصر النيل حيث ترابط خمسة مراكب شراعية يُسيِّرها

أبو عيدة، قام الضابط بالقبض على صبيانه المتواجدين بالمرسى وأمر رجاله بتفتيش المراكب وتجريدها من أجهزة الموسيقى التي تصدح بها وهي تتهادى على صفحة النيل..



تعدت خسارة أبي عيدة في تابعيه العشرين رجلا وامرأة بخلاف العشرات من ذوي العاهات المستديمة الذين كان من الصعب عليه إيجاد بديل لهم بسهولة.. استقروا جميعا في قبو القسم إلى أن يفرغ ضابط المباحث من تسطير محضره ولكنه تراخى في إعداده متعمدا، متعللا أمام مأمور القسم بإرهاقه الشديد بعد الحملة المكبرة..

ما إ: استقر العقيد حسين عناني أمام ستيقي حتى قدم له الأخير كأسا من الويسكي مبتسما في مكر:

- ولزومها إيه الغارة المفاجئة دي يا باشا؟

تجرع العقيد كأسه دفعة واحدة ثم رفع جفونه المتراخية وهو يجيبه بخبث بعد نجاح مخططه، واثقا من وساطة ستيقي لعقد هدنة سلام جديدة مع أبي عيدة:

- لازم يتربى و يدفع الشهرية في معادها..



اقترب ستيڤي هامسا:

- طلباتك أوامر دائما...

ثم أخرج مظروفا منتفخا بخمسة آلاف جنيه ما إن قلبهم العقيد بيديه، حتى أعاده لستيڤي بلا اكتراث قائلا وهو يحدق في وجهه بعينين حمراوين من الإرهاق مشهرا إصبعين في وجهه:

- المرة دي دوبل يا ستيڤي علشان يتأدب..

تأزم وجه الساقي ثم أردف:

- مش كتير يا باشا؟!

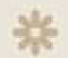
- له مش كتير، لو المحضر اتحرك من القسم حيروح النيابة والنيابة محتاجة محامين وبعدين في محكمة وحكم بالحبس وطبعا غرامة.. يبقى يوفر كل ده ويدفع الغرامة وخلاص..

قالها وهو يتجرع كأسه الثانية بتلذذ مبتسما في برود..



أفلتت ضحكة استنكارية من ستيقي رغما عنه ثم استأذن بأدب جم كعادته تاركاا البار ليجري اتصالا هاتفيا، ولم تمض بعده دقائق طويلة حتى كان أبوعيدة بصحبة أحد رجاله ينطلقان بقاربه البخاري مخترقين صفحة النيل كالسهم حتى استقرا على المرسى القريب من الحانة، وهرول رجل أبي عيدة في اتجاهها، وسرعان ما كان ستيقي يقدم مظروفا مماثلا للأول بخمسة آلاف أخرى ليدس العقيد المظروفين في جيوب سترته ثم هاتف ضابط مباحث القسم الذي سبق أن اتفق معه على ألا يحرق سفنه خلفه بتحرير محاضر ضبط؛ لتخرج بعدها بدقائق معدودات الدهماء والسوقة والشحاذين إلى شوارع الحي العريق مرة أخرى لتستقر بأماكنها..وكأن شيئا لم يكن.

*****



في الفترة الميتة كما يطلقون عليها بالحانة ما بين انصراف زبائن الظهيرة وحضور خفافيش الليل للسهر، اجتمع ستيقي برجاله وهو يفتح صندوق الإكراميات الأسود والعيون ترقبه في لهفة، لم يخصم نسبة الثلاثين بالمائة الخاصة به ثم يعيد تقسيم المتبقي عليهم جميعا مثلما يفعل دوما، بل ترك لهم كل ما في الصندوق هذا الأسبوع وأنقد كلًّا منهم ألف جنيه إضافية من جيبه الخاص شارحًا لهم دورهم في الترشح ضده بانتخابات الغرفة واعدًا إياهم بمزيد من الرعاية إذا ما نجح، انتابتهم الدهشة لوهلة ولكنهم أبدوا موافقة سريعة بعدها، عدا ضياء العجمي الذي بان عليه الارتباك وأمام نظرات ستيقي الحادة التي كادت تجرده من ملابسه تفصد عرقه حتى لمعت جبهته العريضة وخلع نظارته الطبية وردد متلعثما:



٧:٠١ م

- الحقيقة يا ريس أنا رشحت نفسي من أسبوع لما عرفت إن الإدارة رفضت التزكية، لكن كنت عاوز اعملهالك مفاجأة واتنازل لصالحك..

قال عبارته الأخيرة وهو يحك أنفه بيده.. اقترب ستيقي منه وربت على كتفه مبتسما في استنكار خفي، ثم التفت إلى الباقين محفزا إياهم على جمع أصوات لصالحه خاتِما:

- وكل واحد فيكم ياخد صوت ولا اتنين، لازم العملية يبقى شكلها مقبول ونضيفة.. شدو حيلكم.

استقر ستيقي خلف البار مرة أخرى ليجد العقيد حسين قد اختفى.. مرت دقائق ثم لمحه جالسا مع شادي وزيزي التي تعلقت به وتعلق بها، فلم يعد يسهر بالحانة أو يظهر في مكان إلا وهي بصحبته فلم يكن قد مل منها بعد.. ثمة صداقة قايمة على تبادل المنفعة



نمت وكبرت في الحانة بين العقيد حسين وشادي.. الأول كان يطمع في وظيفة مضمونة بعد تقاعده الذي بات وشيكا في حركة الشرطة القادمة، وفقا لما يتم تسريبه إليه من كواليس وزارة الداخلية في حين كان شادي يرغب في ضمه إلى مجموعته من أصحاب النفوذ الذين يرعاهم ويختصرون له خطوات كثيرة عند أي احتكاك مع أجهزة الدولة؛ ليكون طريقه دائما ممهدا قصيرا فيحصل على خدمة مميزة بغض النظر إن كان يستحقها أم لا، المهم عندما يطلبها يجد من يلبي النداء.

إلى اليسار قليلا حيث اعتاد أن يقبع في ركنه المفضل ذي الإضاءة الخافتة فيبدو الجالسون هناك أشبه بظلال سوداء تحتسي شرابا وتدخن سجائرها بشراهة، لم يكن الصحفي كمال شرف من رواد الحانة المرحب بهم من جانب ستيفي فقد كان يراه ثقيل الظل متفلسفا نوعا ما، حادا في رأيه لا يجامل




بسهولة وكثير الانتقاد.. فبدا وكأن وجوده مفروض عليه لا يستطيع منعه أبداً رغم محاولاته ولكن كلها باءت بالفشل، فكمال من الرواد الأوائل، الذين يترددون على الحانة منذ منتصف السبعينيات بانتظام، و يجلس في ذات المكان لا يغيره أبداً، يظهر في أوقات تكون الحانة فيها شبه خاوية بصحبته أوراق وأقلام وكأنه حضر للتأمل والاسترخاء، واستعدادا لالتقاط فكرة عابرة في أي وقت، لا يحتسي سوى البيرة مع قليل من حبات الفول السوداني ورغم أنه يلقى معاملة طيبة من النادل نادر ومجاملة تصل أحيانا إلى حد إعفائه من فاتورته، إلا أنه يصر على دفع قيمة ما يشربه بانتظام.. لا يقرب الويسكي أو الكحوليات البيضاء إلا إذا دعاه أحد إلى طاولته ووقتها يكتفي بحوار قصير ينتهي بنهاية كأسه ثم يعود أدراجه وكأنه يدخل إلى





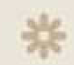
عالم خاص أرقى وأسمى يرى فيه الجميع من فوق منصة عالية، فلا يشعر بذاته إلا هناك..

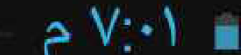
كان الوزير كامل أبو الأسرار يتنصت على حديث الصحفي كمال مع نادر حول دور كارل ماركس في إعادة قراءة التاريخ وحقوق العمال التي كانت مهدرة في ظل رأسمالية شرسة، ولأن كمال كان مندمجا للغاية وكأنه تقمص شخصية ماركس فلم يشعر بالوزير السابق الذي بدا كمن اقتحم عليهما غرفة مغلقة فجأة صائحًا في حدة..

- خلاص كل حاجة في الرأسمالية بتشوفوها غلط.. مفيش حاجة صح؟ انتوا فاكرين نفسكوا أوصياء علينا؟ البلد عمرها ما حترجع أربعين..خمسين سنة لورا اصحوا.. قولوا لنفسكوا كفاية.

التفت كمال ببرود ناحية الوزير..وعيناه حمراوان تبرقان في غضب، ثم ابتسم له مستنكرا وهو يرد بهدوء وكأنه يعلق على







مشهد يجرى أمامه لا علاقة له به:

- عارف يا باشا الناس مش بتثور عليكم ليه رغم انها متضررة منكم اوي؟

قبل أن يستوعب الوزير السؤال أردف كمال:

- لأن الوعي العام كله بقى مزيف.. مصر بتعيش حفلة تنكرية كبيرة ومش حيستقيم الحال وتنجح أي ثورة شعبية إلا بعد أن يخلع الجميع الأقنعة..

مط الوزير شفتيه في امتعاض قائلا:

- انت مغيب وأفكارك قديمة أكل عليها الزمان وشرب، بالعكس الناس مش حتثور على النظام؛ لأنه الأقرب للعدل يعني انت بتكسب على قدر موهبتك ومجهودك، لكن طبعا أفكار حضرتك قايمة على المساواة اياها يعني اللي بيشتغل زي اللي مبيشتغلش، شوف الهند والصين بقوا فين بعد ما تحرروا من الأفكار الشيوعية القديمة وطوروا نفسهم، كل



فكر وله وقته يا كمال ولو ملحقتش قطار التطوير حتفضل واقف تهتف لوحدك على المحطة ومحدش حيعبرك، الناس عاوزة تاكل وتشرب وتتعالج وتتعلم، تتقدم بجد مش بشعارات من اياها..

ارتشف كمال رشفة من كوب البيرة متلذذا ثم قال بنبرة واثقة:

- لو فتشت عن التفاصيل الاشتراكية في حياتنا يا دكتور حتندهش، كل الحقوق اللي بتتكلم عنها أصلها من أفكار كارل ماركس لأنه ببساطة أو أول واحد قال إن شغلنا أساس الربح اللي بيكسبه صاحب العمل يعني بالبلدي كده احنا البقرة الحلوب بالنسباله..

قاطعه الوزير بحدة:

- بلاش كلام نظري، كفاية فكرة التأميم وملكية الدولة لكل وسائل الإنتاج علشان تدرك فشل نظرياتك كلها، البقرة اللي بتتكلم عنها عندما كانت مملوكة للدولة ماتت من



الهزال والسرقة والفشل..

ضحك كمال بسخرية ولمعت عيناه بشدة وهو يجيبه:

- ولما حضرتك كنت في الوزارة كنت بتعمل ايه لما الحكومة بتحتاج فلوس؟

بدت على الوزير ملامح الاندهاش والتعجب بوضوح فاسترسل كمال بسخرية:

- مش كنت برضه بتمد ايدك على فلوس التأمينات والمعاشات وصناديق الادخار.. تأميم ده ولا مش تأميم يا دكتور؟ مش دي برضه بقرة حلوب بالنسبة للحكومة؟ الحقيقة دي شيزوفرنيا سياسية كلكم مصابين بيها زي ما يكون مصل بيطعموكوا بيه وانتم بتحلفوا اليمين..

ارتشف كمال قليلا من البيرة ثم أردف مشيرا إلى النادل نادر:

- تقدر تقولي لو الجرسون المحترم ده أصابه





مرض أو جاتله عاهة في ايديه مين حيعالجه، مين حيصرف عليه وعلى ولاده و مين حيشوف حقوقه؟ الحقيقة يا معالي الوزير ده مش عدل خالص.. ده اسمه استغلال..

تأهب الوزير لمغادرة البار بعد أن ظهرت عليه ملامح عصبية مبكرة كالعادة وضاق بجدل محدثه قائلا:

- أنا فاهمك لكن لازم تعرف إن البلد فيها رأسمالية مختلفة عن أمريكا، والحكومة أولوياتها التقريب بين الطبقات وعندها خطة طموحة لسد الفجوة الرهيبة بين الحضر والريف لكن انتم عمركم ما حتشوفوا حاجة طول ما النضارة السودا دي فوق عينيكم..

علا صوت كمال ضاحكاً:

- راجع نفسك يا دكتور واقرا تاني علشان تعرف مين بدأ النضال من أجل الحريات وحقوق المرأة والأقليات ونقابات العمال، وبعدها نكمل كلامنا..



رفع الوزير الأسبق يده اليسرى وكأنه يحتج
والتفت ناحية كمال وهو يغادر مبتسما قائلا:
- له.. كفاية!

*****

مضت الليلة بنفس الوتيرة مثل سابقتها..
الكل تحول إلى فراشات تحوم حول نيران
نهايتها، هذا يسكر وهذه ترقص، ذاك يشاغل
تلك وهذه تضع عينيها على آخر لترافقه،
صفقات تُعقد في ثوان ومشاعر تتأجج في
دقائق تحت وطأة نشوة خمر زائفة، كئوس
تقرع وتفرغ في جوفِ ظمأى يئنون بالشكوى
ويرسون بسفن همومهم على شاطئ ساقيهم،
أو ينصت ويبتسم ويربت عليهم في حنو ثم
تخرج من بين شفتيه كلمات براقة مدموغة
بأمل كاذب، يبيع لهم السراب كل ليلة،
فيتجرعون الوهم راضين مقبلين عليه بشغف
يحتضنونه في لهفة، يخشون أن يتسرب من





بين أيديهم، ولكن تتبخر كلماتهم وهمومهم
من عقله وتنمحي من ذاكرته عندما يغادر
الساقي حانته كل ليلة متخفيا مثلما حضر
إليهم ينزع ال‍قناع الذي ارتداه أمامهم ويعود
من حيث أتى، مثلما ينفضُّ السامر ويلملمون
خيمة السيرك لينكشف العراء، ويبدأ المهرج
في خلع ال‍قناع وإزالة المساحيق من على
وجهه.. تنجلي الحقيقة وتظهر الوجوه
الحزينة المرهقة البائسة، يهدأ الأسد ويكف
عن الزئير ويصبح وديعاا كسولًا كقط أليف،
يسدل الستار عن المسرح بأضوائه الباهرة
ليختفي الجميع في ظلام الكواليس وبعدها
بليلة تضاء الأنوار، يجدهم في انتظاره بلهفة،
نفس جمهوره لا يتغير، يترقبون حضوره
وكأنهم على موعد مسبق مع قدر تعيس
مختار لا يحيدون عنه ولا يخطئهم أبداا.
قرب الفجر بقليل وقد خلا نصف الحانة من
روادها، غادر شادى وزيزى تتأبط ذراعه وهما




يترنحان تماما لا يستطيعان أن يكملا
خطوتين مستقيمتين، تكاد سيقانهما تلتف
حول بعضها البعض، استقرا في سيارة شادي
ثم انتابتهما فجأة موجة من الضحك
الهستيري فقد جلست زيزي على مقعد القيادة
بدلا منه وغاص أو في المقعد المجاور فبدا
تائها وهو يتأمل تابلو السيارة بحثا عن المقود،
صممت زيزي على القيادة وتحت إلحاحها
وثقل رأسه رضخ، إلا أنها لم تكد تتجاوز شارع
الحانة وتنعطف يسارا في طريق أضيق،
حتى بدأت تحتك بالسيارات المتراصة على
الجانبين، بدت السيارة مترنحة كقائدتها
تتمايل يمينًا ويسارا، أدرك شادي خطورة
الموقف بعد برهة فجذب عصا الفرامل
اليدوية ثم نزع المفاتيح ليجبر زيزي على رفع
قدميها من دواسات البنزين وبالكاد استبدلا
موقعيهما، وما إن تحرك بسيارته حتى علا





صوت زيزي بعبارات غير مفهومة وهي تهذي مصممة على القيادة مرة أخرى محتجة بشدة على اتهامه لها بأنها ثملة، لم يستجب لها فظل صوتها يعلو مهددة إياه بتصرف جنوني، فلم يأبه لتهديداتها وقام برفع صوت الراديو ليغطي على صراخها..

ضاقت الطريق أمامه فجأة ولمعت أنوار متقطعة وأبطأت السيارات من سرعتها بسبب كمين شرطة بالمنطقة البحرية من حي الزمالك فهدأ من سرعته طالباً منها بحسم أن تضبط ملابسها وتعتدل في جلستها المتراخية وألا تنطق بحرف واحد.. فتح عينيه بقوة ليعين نفسه على التركيز ولمح لوهلة خيالا وحركة من زيزي، ولكن شغله الضابط الشاب الذي كان قد اقترب منه بينما راح شادي ينظر إليه بعينين زائغتين قلقتين وعقل ثمل متحفز للشجار.. انحنى الضابط مقربا رأسه من نافذة شادى ثم تراجع على



الفور متأففا من رائحة الكحول ثم انحنى مرة أخرى وقبل أن ينطق بحرف لاحت منه ابتسامة ساخرة، ظن شادي أنه يحييه بها فبادله بأخرى بلهاء واسعة، إلا أن الضابط جذب باب السيارة بعنف قائلا:

- انزل انت وهي..

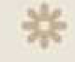
كانت زيزي قد نفذت تهديدها الجنوني بالفعل، مد الضابط يده لمرآة السيارة ملتقطًا حمالة صدر سوداء، خلعتها أي وتركتها معلقة بالمرآة الأمامية، أمسك بها الضابط وهو يفردها بذراعيه حتى نهايتها متفرسًا ملامحهما، كانت زيزي تستند لمقدمة السيارة لا تقوى على صلب طولها مطرقة في قلق، بينما ظل شادي بالقرب منها يجز على أسنانه ويعبث في خصلات شعره بعصبية وذهنه المشوش يعمل ببطء محاولا الخروج من أزمته بلا جدوى، في حين ارتسمت ابتسامة



واسعة على وجوه أفراد قوة الكمين من أمناء الشرطة والمجندين وهم يتنقلون بأعينهم الجاحظة بين حمالة الصدر وجسد زيزي تاركين لخيالهم العنان..!!

*****

هوت صفعة سريعة على وجه هاجر من أمها تلتها صفعات متتالية عشوائية تعبر عن هلع نفسي أكثر منها إيلاما بَدَنِيًّا، ثم راحت الأم تلطم خديها وتبكي بدموع ساخنة بللت وجنتيها السمراوين فلمعتا، تهاوت على الأرض بجوار هاجر جالسة القرفصاء وهي تضع كفاً على رأسها وتضرب بالأخرى عليها، في حين انكمشت هاجر مذعورة وقد تكومت على نفسها في ركن الغرفة الضيقة وعيناها تزدادان اتساعا فزعاا ورعبا‌ا عندما التقطت أذناها خطوات أقدام ثقيلة زاحفة تنبئ عن قدوم أبيها، لم يستوعب عقل محروس كل ما قيل له وربما لم يسمع حديث زوجته حتى



نهايته؛ فقد سبقت كفاه عقله، وشعر بغصة في حلقه وضيق في صدره، برقت عيناه ثم انغمس في الاعتداء على هاجر حتى فقدت وعيها من شدة ما صفعها، وسالت دماؤها من جانبي شفتيها ورغم ذلك استمر يركلها في بطنها بقدميه بلا وعي حتى خارت قواه تماما فاستند على الجدار وترك جسده يتهاوى ببطء، أو ينظر إلى لا شيء في حين لم تتوقف زوجته عن النحيب المكتوم..

صدمة لم يتحملها أيٌّ منهما، دار أمام عينيه وعلى مسمع منه صورة أبي عيدة وصوته الأجش وهو يحذره من أهل مصر واصفا إياهم بالذئاب، لم يكن محبذا لخدمتها بالبيوت، فعلها مضطرا تحت وطأة الفقر والعوز والحاجة، ولأن والدة فؤاد فخري قاربت التسعين وهاجر تتواجد في فترات غيابه فقط فلم يدر بخلده أن يعتدي عليها





رجل في سن أبيها إن لم يكن يكبره بسنوات، شعر بأن عقله لا يستوعب المشهد وكأنه قد توقف عند جانب وحيد منه ولا يفارقه، ويأبى أن ينصرف عن مخيلته، استجمع قواه ونهض مقتربا من زوجته فلطمها على خدها بشدة؛ لتصمت.. ثم طلب منها معاونته فيما انتوى عمله فامتثلت في خنوع ودموعها تنساب في صمت لتبلل صدر جلبابها تلك المرة من فرط غزارتها.

على بعد أمتار قليلة من غرفة محروس كان مدحت المعداوي يدلف من مدخل العقار وبصحبته داليا بعد أن أمضيا سهرتهما بالحانة مصطحبا إياها لعيادته الخالية احتفالا بشفائها من عملية الإجهاض التي أجراها لها ليقبض ثمن مساعدته الإنسانية لها حسبما يحلو له أن يصف عمله دائما، وبينما كان يقف محتضنا داليا في انتظار المصعد سمع صوت ارتطام مكتوم تكرر مرتين متتاليتين فانتبه قليلا ثم



فتح باب المصعد ليدلف فتكرر الصوت لمرة ثالثة أعلى من سابقتيها، أنا لم يستطع أن يقاوم فضوله، سار على أطراف أصابعه بالقرب من الدرج يسترق السمع ويركز بكل حواسه حتى حدث الارتطام للمرة الرابعة مصحوبا بأنين مكتوم استطاع بسهولة أن يحدد مصدره فاندفع مسرعا نحو غرفة محروس دافعاا بابها بقدمه ليجده أمامه وبجواره زوجته ينظران إليه في دهشة، وتتوسطهما هاجر مسجاة على ظهرها وخيط رفيع من دماء داكنة يسيل من بين فخذيها، وهي في شبه إغماءة تهذي بعبارت غير مفهومة وتتأوه وقسمات وجهها تنبئ عن ألم رهيب مكتوم يغمرها، سادت لحظات صمت ومحروس، ومدحت يتبادلان نظرات حادة غاضبة وكل منهما يستجمع قواه ويلملم شتاته ليهاجم الآخر في ضراوة..





انتبه مدحت فجأة لوجود داليا بجواره، والتي أفلتت منها صرخة مكتومة لما وقعت عيناها على هاجر وهي تتلوى في بطء ولا تزال تنزف..ارتبك محروس وزوجته لما شاهداهما وتراجعا حتى ألصقا ظهريهما بالحائط وقد تراخيا أكثر، فما كان من مدحت إلا أن جثم على ركبتيه وسرعان ما حمل هاجر مهرولا نحو المصعد، ووراءه داليا وهي ترتجف من أعماقها خوفا، لم تمض لحظات حتى كان محروس قد لحق بهما ليقف بجوار داليا التي كان جسدها كله ينتفض ويرتج في غرفة الكشف، وهما يراقبان مدحت محاولا إيقاف النزيف في سرعة وعرقه يتفصد منه ويداه ترتشعان قليلا والصداع يضرب جنبات رأسه بعنف، بعد أن انسحبت سكرة الخمر ونشوتها فجأة.. مرت دقائق ثقيلة كسلحفاة تائهة.. وأستار الصمت تسدَل على الغرفة



وتغلفها في هدوء قاتل لا يسمع فيه إلا أنات هاجر المتقطعة، وأصوات اصطكاك أدواته الجراحية التي راح يستخدمها بحذر شديد وبيد مغلولة شبه عاجزة وعقل لم يُهيَّأْ من قبل لإنقاذ حياة، بعد ما استمرأ وأد أجنة على مدار سنوات...

أخرجت هاجر لسانها ولعقت شفتيها وكأنها ظمأى ولا تجد من يسقيها، كان بياض عينيها أو الغالب، بدت شبه غائبة عن الوعي وعقلها تتراقص فيه خيالات لأطياف مهزوزة من بعيد لها مع فؤاد فخري وهو يضاجعها بعد أن شربت من زجاجات خمره.. ذاقت كثيراا من ثلاث منها في غيابه فتاه عقلها، وتجرعت كأسين معه عندما عاد تلك الليلة البعيدة من الحانة فشربتهما دفعة واحدة تحت إلحاحه فراح العقل تماما، كان فؤاد، يومها ثملا مسطولا منتشياا، فلم تدر بنفسها إلا وهي تتقلب بين ذراعيه كدمية وهو ينهل من



جسدها البكر كل ما تطوله يداه وعضوه، حتى انتبهت فجأة لفقدها عذريتها فجزعت وأصاب الهلع فؤاد أكثر منها، فزادها قلقا على قلقها فدفعها بعيدا عنه حتى أفاقت، بعدها تهرب منها حتى هجرها، مرت أيام ثم أسابيع، انقطعت عنها فيها دورتها الشهرية فأصيبت بالهلع، أبلغت أمها لتسترها قبل أن تفضحها بطنها، ولكن سبق السيف العزل، انهارت الأم غير مصدقة ما كانت تتوجس منه بعد أن تحول الكابوس إلى واقع أليم... شهقت هاجر فجأة وارتج جسدها الرقيق برفق ثم سكنت تماما..

ألقى مدحت بمشرطه المدمم في إناء معدني وهو يزفر في ضيق زفرة طويلة ثم غطى وجه هاجر بالملاءة وفرك عينيه ومسح وجهه بعصبية، متلفتا خلفه نحو محروس وداليا ليبلغهما أنها فارقت الحياة فلم يجدهما..





تبخرا فجأة من العيادة كلها دون أن يشعر بهما، انتابته رعشة مفاجئة وشعر بالخوف يسري تحت جلده كأسراب نمل تتحرك في جحافل وكأنها تحتشد لمعركة وشيكة، فظل قابعاً في مكانه بعد ما حاول النهوض، فلم تقو قدماه على حمله تلك المرة.

*****

لم يعد الحاج عبد الحكيم السهلي يتردد على مكتبه بوكالة البلح يوميا مثلما كان، تبدل حاله وصار مهموماً بعد أن تحول إلى أضحوكة ومثار سخرية لتجار الوكالة الذين لم ينالوا شيئا من زينة فشمتوا فيه أشد شماتة، عندما اكتشف أنه تعرض لأكبر عملية نصب في حياته إن لم تكن في تاريخ وكالة البلح كلها.. لم يتحمل الرجل نظرات صبيانه وكلمات السخرية من التجار الآخرين الذين وصلت بهم الصفاقة لدفع صبية صغار مأجورين أمام محله ليعايروه بعبارة ثابتة لا



تتغير يرددونها بنغم.. «**يا زينة الرجالة**»..
وكأنهم يزفونه لآلامه وجروحه كل يوم،
فاعتكف في بيته..

كانت البداية عندما بدأت زينة تتهرب منه وتؤجل لقاءه، ثم ساوره الشك لمَّا حل ميعاد وصول الشحنة المنتظرة والتي وضع فيها معظم ثروته، ثم تبين له أنه لا توجد شحنة ولا يحزنون..وقتها قدمت له زينة عشرات الحجج المختلطة بالأكاذيب بمهارة لتبرير تأخرها، فلما استحقت الشيكات التي وقعتها له كانت الطامة الكبرى عندما أبلغه البنك أن التوقيع غير مطابق ولا يخص زينة على الإطلاق، كاد وقتها يجن فقد وقعت أمامه الشيكات بمكتبها ولم يفطن وقتها إلى أنها قد بدلتها جميعا بمعرفة سكرتيرتها عندما طلبت منها تسجيلها بدفتر الاستحقاقات لتطمئنه على ماله.. دقيقة واحدة كانت كافية لتستبدل



السكرتيرة شيكات زينة الحقيقية بأخرى مقلدة ومعدة سلفا قبل حضوره في تلك الليلة المشئومة..

بعد اجتماعات ومشورة مع ثلاثة من أبنائه الذين أخذوا على عاتقهم مهمة استعادة هيبة أبيهم وأمواله المفتقدة، فطنوا بعد تفكير إلى الاستعانة بتلك السكرتيرة ترغيباً وتهديدًا فاستجابت طمعاً وخوفاً حتى وقفوا منها على الحقيقة، بعدها انتقلوا إلى تنفيذ المرحلة الثانية من معركة إعادة الأموال المنهوبة على وجه السرعة بعد أن أمدتهم السكرتيرة بمعلومات مهمة عن انتواء زينة إغلاق مكتبها بالزمالك خلال أيام؛ استعدادا للسفر إلى قبرص لبدء نشاط جديد هناك..

في صباح يوم جمعة كان عبد الحكيم السهلي واثنتان من زوجاته يغادرون مطار القاهرة في طريقهم لأداء العمرة، وبعدها بيومين نحو السابعة والنصف مساء اقتربت





سيارة صغيرة ذات زجاج داكن ولوحات معدنية مطموسة من الحانة حتى استقرت على مقربة منها، بعد نحو ساعة غادرت سكرتيرتها العمارة، توقفت قليلا أمام المدخل وهي تتلفت ثم استقلت تاكسياً تعمدت أن يساعدها النوبي حارس العقار في إيقافه منفذة كل ما طُلِبَ منها بالحرف الواحد.. عاد النوبي يقبع متربعا أمام المدخل في وجوم متذكراً مأساة هاجر ومحروس ولم تمر لحظات طويلة حتى سمع صوت زجاج سيارة يتهشم على مقربة منه فمضى يتفقد السيارات التابعة للسكان.. في ذات التوقيت فتحت أبواب السيارة الصغيرة وخرج منها ثلاثة رجال دلفوا إلى منزل زينة في خفة وسرعة، ولم تكتمل دقيقة من الزمن حتى كانوا في مكتبها مستخدمين نسخة من مفتاح السكرتيرة..

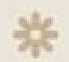




حمل وجه زينة دهشة ورعبًا أكثر مما يحتمل، فنَاءَ بِحِمْلِهِ، وتدلت شفتاها بعد أن اتسعت حدقة عينيها فزعًا والرجال الثلاثة يحيطون بها مشكلين نصف دائرة.. لم تقاوم كثيرًا، صفعة واحدة كانت كافية لكي تلتصق في مقعدها، وما أي إلا لحظات حتى شدوا وثاقها تماما من يديها وساقيها، ووضعوا شريطًا لاصقًا عريضًا سميكًا بحيث يغطي فمها، بينما راح أحدهم يشهر مسدسا كاتما للصوت في وجهها ملوحا به في تهديد واضح لا يحتاج إلى تفسير أو شرح لما سيحدث لها عند أي بادرة مقاومة؛ فملامح الرجل توحي بأنه ممن لا يترددون لحظة في أن يفعلوها بقلب ميت..

أخرج رجل آخر هاتفه وأدار رقمًا سعوديًا ولما جاءه صوت عبد الحكيم السهلي على الجانب الآخر، أخبره بتمام المهمة ثم استمع له





قليلا بعدها وضع الهاتف على أذن زينة، لم يتحدث عبد الحكيم كثيراا، وإنما جاءت كلماته القليلة حاسمة أشبه بأمر واجب النفاذ فوراا وإلا غادرت زينة الدنيا في هدوء.. كانت تهز رأسها عدة مرات متتالية بالإيجاب وهي تستمع إلى حديثه وتصدر صوتا مكتوما لتعبر عن موافقتها والفزع لا يزال يطل من عينيها وكأنه التصق بهما.. التقط الرجل سماعة الهاتف منها واستمع لتفاصيل مشهد النهاية ثم أغلق هاتفه وملامح وجهه تزداد تجهما وصرامة.. على مقربة منها كان الرجل الثالث يعبث بيدين ملقنتين جيداا وتعرفان ماذا تريدان، حتى التقط دفتر شيكات لحساباتها بالبنك الجديد غير الذي تعاملت مع عبد الحكيم عليه من قبل ثم فكوا وثاق ذراعها لتوقع شيكات جديدة بتاريخ شهر سابق..

بعدها تبادل الرجال نظرة ذات مغزى قام على إثرها أحدهم ببعثرة محتويات المكتب



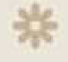
ونزع أدراجه، ثم اقترب الثالث منها ببطء وهو يجز على فكيه، ويضع كفيه خلف ظهره، فأغمضت عينيها بشدة وهي ترتجف.

*****

ضرب صابر جبهته بشدة وهو يقفز من دراجته أمام المحل ليدلف مهرولا طالبا فطيرة عاجلة فلما استفسر منه الطاهي عن نوعها أجابه في تسرع:

- **أي حاجة.. بالسكر..**

ثم عبث بهاتفه ليتصل بها معتذرا عن التأخير فقد كان يدرك أن غضبها شديد ولن يحتمله قط.. لم ترد على مكالماته، عبث بجيوبه ليتأكد من وجود قطعة المخدر الملفوفة بعناية ثم ألقى بعلبة الفطيرة في صندوق دراجته البخارية وانطلق صوب شارع الحانة.. ترك الدراجة قرب النوبي موصيا إياه بالعناية بها مقررا له أنه في طريقه لمكتب زينة.



عندما غادر المصعد لاحظ أن الباب موارب، قرع الجرس عدة مرات فلم يسمع سوى رنين الصمت، دفعه فضوله لدفع الباب ببطء محدثا صريرا بطيئا متقطعا.. دلف إلى الصالة الصغيرة مناديا باسمها فلم يتلق جوابا! ظل يتلفت حوله والظلام يحيط به إلى أن تعود عليه فلمح خيالا متكوما على مقعد، اقترب وأضاء مصباح الغرفة ثم تسمر مكانه، لم يقو حتى على التراجع، كانت رائحة الموت تنتشر في المكان وتعبئه، وجثة زينة أمامه موثقة بالحبال الغليظة، ورأسها مهشمًا بالكامل، ووجهها تغطيه الدماء اللزجة الساخنة بعد أن هوى أحد رجال عبد الحكيم بكعب مسدسه على رأسها بشدة ففقدت الوعي فهشمها بعد ذلك، تدلت رقبتها على جسدها كثمرة ثقيلة أوشكت أن تسقط في أي لحظة.. سقطت منه علبة الفطيرة وتدلى لسانه من فمه بعد أن



فغره عن آخره وسرت رجفة قوية بجسده وكأنه قد مسه الجان، لم يتعرف عليها في البداية ولم يكن متأكدا أن زينة أي التي أمامه من فرط تشوُّه ملامحها.. بدأ يتراجع بظهره مذهولا وشعر بأنه قد فقد القدرة على النطق والاستيعاب معا.. ما أن تخطى عتبة شقتها حتى ارتقى الدرج هابطا في سرعة واندفاع ثم هرول مستقلا دراجته البخارية والنوبي يحملق في وجهه ذاهلا..

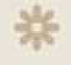
- حصل حاجة يا أستاذ؟

قالها النوبي وهو يهم بالنهوض مستفسرا في قلق فلم يجبه، وسرعان ما اختفى بدراجته البخارية دون أن يفطن إلى أنه يسير عكس الاتجاه..!

*****

تنبه العقيد حسين أن هاتفه يهتز بإلحاح فأخرجه بتكاسل من جيبه، فلما وقعت عيناه على شاشته ترك مقعده على البار مبتعدا





بمسافة، انزوى في ركن كاتماً فمه بكفه مطمئنا محدثه ومهدئاً من روعه ثم قال في حسم:

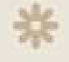
- إديني الظابط أكلمه..

دار حديث لا يخلو من رجاء في بداياته بين العقيد وضابط الكمين الشاب لكي يترك شادي ورفيقته زيزي لحال سبيلهما ولكن ضابط الكمين كان قوي الحجة يرد في حزم ولهجة مؤنبة لمن يتوسط:

- ده سكر بين وفعل فاضح يا حسين باشا..

- يا سيادة النقيب دول كانوا ضيوفي وشربنا شوية لزوم السهرة ولازم نكرمهم لغاية ما يروحوا بالسلامة ده واجب الضيافة، والا اتحبس أنا معاهم كمان بقى..

قالها العقيد في سخرية وهو يطلق ضحكة مصطنعة ليعود ويلح على ضابط الكمين ليتركهما دون أن يترك له فرصة ليشرح



ويدافع عن مبادئه وشرف مهنته، فقد كانت تلك أول مرة يطلب فيها منه شادي أمرا ويستحيل أن يخذله حرصاا على مستقبله المأمول، فلما لم يلن الضابط صغير الرتبة حسم العقيد الأمر بلهجة مغلفة بتهديد سافر بالاتصال بقيادة الضابط والحضور بصحبته للكمين لتحريرهما..

خارت مقاومة الضابط مع تهديدات العقيد فهو يعلم صلته برؤسائه، ويوقن أنهم سيلينون ويستجيبون لوساطته من جراء سيل خدماته المنهمر على رؤوسهم، ولن يستفيد شيئا من مواجهة ريح عاتية بمفرده ستقتلعه وحده في نهاية الأمر، فأحنى رأسه مستسلماا وهو يعطي الهاتف لشادي بعد أن قرر العقيد في النهاية إبلاغ رئيسه والحضور للكمين، ثم أدار وجهه متفاديا النظر له ولأمين الشرطة المكلف بحراستهما قائلا بنبرة خافتة متحشرجة:





- خليهم يروحوا يا أمين.. ورجع كل الرخص المسحوبة لأصحابها.. واعملوا تمام انصراف الكمين.

على بعد بضعة كيلومترات كان كمين شرطة آخر قد نصب شراكه قبل الحانة بمسافة قريبة، يقف على رأسه ضابط مباحث من قسم قصر النيل بملابسه المدنية يراقب بوجه مرهق متجهم ضابط مرور الكمين وهو يستوقف السيارات، فإذا ما لمح بادرة خوف أو لاح له ارتباك على وجوه مستقليها تدخل بنفسه لتفتيشهم وسيارتهم، انتبه فجأة إلى صوت دراجة بخارية قادمة بسرعة عكس الاتجاه وصابر يحاول إيقافها بصعوبة من جراء سرعتها المكتسبة، فأشار لأحد مساعديه وسرعان ما كان صابر يمثل كعصفور جريح بين يديه يقف أمامه مرتجفا، وهو يتفصد عرقا بلا انقطاع كالسيل المنهمر رغم برودة





الطقس..
بدا كالفراشة التي ظلت تحوم حول النار تؤدي رقصة الموت الأخيرة، ثم تلقي بنفسها فيها دون مقدمات، تفحَّصه الضابط مَليًّا ثم فتشه وهو يثبت نظراته على عينيه الزائغتين وما إن عبثت أصابعه المدربة في جيبه الأيسر حتى لاحت ملامح ابتسامة انتصار كشفت عن أنياب الضابط التي كان يحجبها منذ قليل شاربه الضخم وملامحه الصارمة، وهو يتحسس لفافة الحشيش السلوفانية الكبيرة قبل أن يخرجها بإصبعين مشهرًا إياها في وجه صابر ممسكا بطرفها كبندول ساعة ساخرًا:

- دي لوحدها جناية غير مخالفة المرور يا بطل..

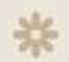
تهاوى صابر كبناء أجوف دقه معول قوي في عاموده فتكوم على الأرض أمام غرفة رئيس المباحث.. على مقربة منه كان مدحت





المعداوي يجلس على مقعد خشبي متوترا
يدخن بعصبية ويعبث بهاتفه المحمول ثم
يضعه على أذنه، وما يلبث أن ينظر في
شاشته ويعيد الكرة ثم يزفر في ضجر
ويتلفت يمينا ويسارا فيزداد ضيقا، بجواره
على مسافة غير بعيدة كان محروس يفترش
الأرض دافسا وجهه بين كفيه في صمت
وبجواره زوجته تقبع بزيها الأسود مكلومة،
بدا صابر مذعورا كفأر حبيس في حجرة
معتمة ضيقة خانقة لا تسمح له بالحركة
المعتادة فانكمش أكثر في مكانه حتى حان
دوره بعد ساعات، فحمله اثنان من المخبرين
الأشداء حتى مَثُلَ بين يدي رئيس المباحث
ثم تراجعا خطوة للوراء فشتتا تركيزه أكثر؛
ظنا منه أنهما سينهالان ضربا على قفاه إذا ما
أنكر، لكن ضابط المباحث الذي بدا متسامحا
هادئا عكس ما كان بالكمين أشار لهما





بالانصراف وأمره بالجلوس، فامتثل بسرعة فقد كان متعباً في أمسِّ الحاجة لإراحة جسده المنهك..

أخبره الضابط بأنهم اكتشفوا جثة زينة وسرقة مكتبها، فلم يرد وظل صامتا يتفرس في وجه الضابط بوجه منحوت لا حياة فيه.. ابتسم الضابط في برود وهو يقدم له سيجارة ثم اقترب منه وهو يغرق أذنيه بمفاجأة العثور على علبة الفطير وفاتورة الشراء وتأكدهما من المحل أنه كان مكلفا بتوصيلها إلى القتيلة، وأنه أخبر صاحب المحل بأنها اتصلت به هاتفيا كعادتها لتطلب منه ما تريد وأخيرا كان النوبي الذي شاهده يفر هاربا وأنه آخر من زارها في تلك الليلة، وبعد ما ألقى الضابط بكل ما عنده بين يدي صابر لم يمهله ليدافع عن نفسه، بل أردف في حسم وكأنه يكمل سيناريو قصة دارت أحداثها في مخيلته فقط..

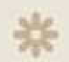




- قولي مين شركاءك وسرقتوا ايه، وليه قتلتوها وانا أوعدك بشرفي إنك تكون شاهد ملك..

كان صابر من داخله يحتاج عمراا :خر على عمره حتى يخرج مما أو فيه، وعبثا حاول إقناع الضابط بأنه شاهد ملك بالفعل ولم يقتل أو يسرق مبرراا المخدر المضبوط معه بعثوره عليه في شقتها ملقى على الأرض فالتقطه فضولا، كان يحاول أن ينجو من تهمة الاتجار بالمخدرات في طريق عبوره جسر النجاة الهش من جريمة قتل زينة قانعا بعقوبة بسيطة للتعاطي، لكن الضابط العنيد لم يقبل أي تعديل في السيناريو الذي رسمه في مخيلته وأجبر صابر على قبوله بلا تعديل فظل يُضيِّق عليه الخناق قدر ما يستطيع..

قطع حديثهما دخول أمين شرطة ليبلغ الضابط بالعثور على جثة طافية على النيل



بالقرب من كازينو أبو الفدا في نهاية كورنيش الزمالك البحرية، أمره بالتحفظ على الجثة عند الشاطئ مؤقتا دون انتشالها لحين تعليمات أخرى ثم التفت إلى صابر منتشيا! قائلا بلهجة حاسمة لا تقبل التردد كثيرا:

- شوف يا بطل قدامك حل من اتنين يا تشيل قضية قتل فيها إعدام والجثة انت اللي رمتها في النيل، ومسكناك متلبس كمان، أو تعترف بقضية زينة واوعدك إنها تبقى مخففة.. ضرب أفضى لموت يعني بالكتير سبع سنين ويمكن بالرأفة تلاتة، أما حتة الحشيش اللي كانت معاك انساها كأن لم تكن، جدعنة مني بمناسبة عيد الشرطة.. قلت إيه؟

بعد ضغوط ووعود ومفاوضات وتهديد ووعيد استمر ليلة كاملة رضخ صابر لسيناريو الضابط ووافق عليه بتعديل بسيط؛ أنه كان بمفرده وتشاجر معها؛ لأنها تعمدت إهانته فانتقم منها ووثقها وضربها على رأسها بآلة



صلبة ألقاها بالطريق بعد ذلك، ولم يكن يقصد قتلها آملا في تخفيف العقوبة.. كان الضابط عند وعده الآثم فلم يثبت قطعة المخدر بالمحضر ودفع بالورق إليه ملقيا القلم فوقه فوقّع صابر بيد مرتعشة باسمه ثلاثيا على كل ورقة.. رجع الضابط بظهره إلى الوراء وهو يتثاءب ثم ضغط زرأ أسفل مكتبه فمَثُل أمين الشرطة أمامه مرددا التحية العسكرية، أشار الضابط إلى صابر قائلا:

- عرض على النيابة مساء اليوم..

ثم سلمه المحضر وبعد برهة استدعى أمين الشرطة بمفرده قائلا بلهجة آمرة وهو يستعد لمغادرة مكتبه للراحة:

- خليهم يرموا جثة الراجل في النيل تاني علشان تعوم مع التيار ناحية امبابة احنا مش ناقصين قضايا.. النهاردة زينة هانم وامبارح هاجر بنت البواب..





راح أفراد قوة القسم يحملون جثة الرجل العجوز ويلقونها في النهر مرة أخرى لتطفو بعد قليل ويجرفها التيار وهي تتهادى على صفحة الماء إلى الجانب الآخر بعد أن أدت دورها المقسوم لها في إجبار صابر على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها، بل ولم يفكر فيها يومًا ما أبدًا، بعد أن أعفاه الضابط من إثمه الحقيقي.

***



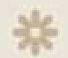


؟

المرء يموت مرة واحدة

ارتكن محروس على حافة النافذة، وهو يطوي الحقول والغيطان بعينيه، حتى انخفضت السرعة تدريجياً قبل أن يتوقف القطار لعطل بالقضبان، فأحدثت عجلاته صفيراً متقطعاً، وكأنه يلتقط أنفاسه اللاهثة.. راحت تفاصيل الصورة تتضح أكثر فأكثر.. وقع بصره على نخلة عجوز، جزعها ضامر وقد ناء بحملها فمالت وكأنها تخر ساجدة تائبة عن ذنوبها تكاد تلامس الأرض كما ينوخ البعير من تعب الترحال ومشقة السفر، وحامت حولها الغربان حتى أتت على ثمارها فنقرتها كلها ثم تركتها وكأنها لم تستسغ طعمها فشوهتها وطارت محلقة مرة أخرى





في سرب أسود كئيب المنظر يجلب التشاؤم وقد علا نعيقها يصم الآذان...

تحسس جلبابه وآيات الأسى تغطي وجهه، كان جيبه منتفخاً بالمال الذي جمعه له السكان بعد مصرع هاجر في عيادة المعداوي، أغمض عينيه و كأنه يغلقهما على مشهدها الأخير لا يريد له أن يخرج للنور مرة أخرى، شرد متذكرا اللحظات الأخيرة بالعيادة وكيف انسحب جاذبا داليا خليل من ذراعها مغادراً العيادة في تلك الليلة المشئومة مهددا إياها بالقتل إذا ما فتحت فمها بكلمة، وهي بدورها تعلقت بتهديده واستكانت إليه مضت خلفه كالسائرين نيامًا فلم تكن ترغب في فضائح أمام الشرطة والنيابة ليرتبط اسمها بقضية قتل، اختفت تماماً بعد الحادث، ولم يستطع مدحت إجبارها على الشهادة لصالحه بعد أن لوحت لمحاميه بفضح عمليات الإجهاض التي

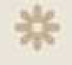




يجريها فسقط بين شقي الرحى لا يعرف كيف يدفع عن نفسه اتهام محروس له باغتصاب ابنته ومحاولته إجهاضها حتى فاضت روحها إلى مولاها بين يديه وفي عيادته، بينما دليل براءته الوحيد داليا خليل بات على وشك أن يدينه في جريمة أخرى فصار كالمستجير من الرمضاء بالنار..

لم يكن محروس يحتاج يومها لكثير من التفكير فبمجرد انسحابه مع داليا من غرفة الموت بعيادة مدحت، حتى أبلغ شرطة النجدة من هاتفها مقررا أن مدحت يحاول إجهاض ابنته، ومضت الفكرة في رأسه فجأة فلم يمهل نفسه وقتا لمراجعتها ونفذها على الفور، وضبط مدحت بعدها بقليل متلبسا دونما تخطيط أو تدبير مسبق من بشر.. وكأن السماء صبت جاء غضبها عليه وخاصمه القدر فتركه وحيدًا.

غادر محروس القاهرة للأبد، أطلق القطار

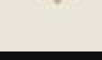


صافرة طويلة ومضى يشق طريقه ثانية وسط الحقول، يطوي مشاهدها في سرعة فاستحالت في عينيه إلى لون أخضر باهت إلا قليلا، فأغلق جفنيه مرة ثانية على صورة هاجر وهي تلفظ أنفاسها في مخيلته لا تريد أن تبارحها، وكأنها حفرت في ذاكرته بمعول هدم معقوف مدبب فصارت أخدودا عميقا لا يقوى الزمن على محوه أبدا.

*****

مضت مريم تحادث نفسها بعد أن جلست على الدَّرَجِ المواجه لباب شقة عائلة عبد الوهاب القديمة في انتظار حضوره.. ما أصعب التعامل مع شخص يقرؤك من الداخل، يراك عاريا بلا ستر..يكشف عن نقاط ضعفك بلا عناء، ولا يسعك حينها أن تتحمل، فقد سقطت أمامه كل الحصون، وتوارت أدوات الزينة كلها في خجل مزرٍ، وانمحى الكبرياء





تحت وطأة الحب الأول.. بقيت ورقة التوت الأخيرة وها أي تستميت لبقائها وهي تأبى بإصرار وعناد المكابرين ألا تسقط.. **هل عبد الوهاب لديه كل هذه القدرة بالفعل أم أنا التي تجردت من كبريائي قطعة تلو الأخرى في عرض خاص له وحده؟!**

لم تجد إجابة لتساؤلاتها ولم تُرِدْ أن تسمع من عقلها شيئا فصمتت، مكتفية بأن عبد الوهاب قد وافق أخيرا على لقائها بعد محاولات مستميتة منها وإلحاح مهين مسح ما تبقى لها من كرامة، بعد أن اشترط عليها شرطين للقاء، أن تأتي متطرحة، وأن يكون لقاؤهما بشقة والده بوسط البلد بعد ما انتقلوا للإقامة بحي المهندسين، فقبلت متضررة متعلقة بأهداب مشاعر لاتزال تغذي قلبها الجريح فينبض بوهن.. اعتادت دوما أن تروي بستان رغباته أولا لتموت حديقتها بورا، هزت رأسها فى سخرية وهى تتحسس طرحتها





بكفها و زغاريد منيرة هذا الصباح عندما رأتها، لا تزال ترن في أذنيها وكأنها انتصرت عليها ووصلت إلى قمة نشوتها عندما تطرحت مريم.. **يا الله**.. خرجت منها الكلمة وسط زفير جريح يائس يتقافز كطير مذبوح قبل أن يسكن للأبد..

عبثت بهاتفها في ملل حتى وقعت عيناها على رسالته لها في عيد ميلادها الماضي، قرأت ماكتبه قبل أن يتحول للنقيض وكأنه قد مسه الجن: **امازلت أتوضأ ببريق عينيك حين تحين صلواتي ومن أجلك أتجرد من كل نقائصي**» دمعت عيناها وهي تعيد القراءة، ثم قفز إلى مخيلتها حديث أبيها إليها إزاء سخافات زوجته وتضييقها عليها طالباا منها أن تتحلى بالصبر، قضت عشرة أعوام وهي تخفي ديانتها وكأنها رذيلة لا فضيلة، جاهدت كي تبحث عن وسيلة تصبر بها، فكفرت بكل

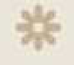


آيات الصبر حتى آمنت بأنه خرافة اخترعناها جميعا لنلطف بها أوجاعنا حين تصطدم أحلامنا بالفشل في حق الحياة مع من نحب في سلام.

أفاقت من شرودها على وقع أقدامه.. مضت تتأمله في ذهول وهو يرتدي جلبابًا أبيض قصيرًا، أسفله سروال من ذات اللون..كادت تصرخ في وجهه كيف يتبدل الرجل وكأنه عجينة طرية لينة لا تجف أبداا فتتغير أشكالها بسهولة.. فاجأها بأن أعمل مفتاحه في باب الشقة ودلف دون أن ينطق بكلمة، وكأنها كم مهمل أشبه بصفيحة قمامة يأنف أن ينظر إليها.. نهضت متنمرة ثم صفقت الباب خلفها بعنف معلنة عن رياح غضب مكتوم على وشك الهبوب..

جلس متربعا وأخرج سواكا من جيب جلبابه ومضى يلوكه في فمه، وهو يرميها بنظرات باردة ليطفئ غضبها فزادها اشتعالًا.. تمالكت





أعصابها واستجمعت قواها مستعيدة ذاكرة مشاعرها وأحاسيسها لمرة أخيرة، وهي تحادثه بنبرة هادئة ودودة تستجدي الرحمة من بين طياتها فكان يتململ في جلسته أكثر.. شرعت في خلع طرحتها المكذوبة فاتسعت عيناه شذرا فخابت إرادتها وتراخى ذراعاها، جلست على مقربة منه وهي تحوطه بعينين تلوح منهما أطلال حنين قائلة:

- نسيت يا عبد الوهاب حكايتنا في الغرام..

- أستغفر الله...

تمتم بصوت هامس لم تسمعه مريم..

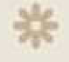
- لسه عاوز تتجوزني فعلا؟

- نعم.

- بتحبني...؟

ساد صمت القلق انتظارا لجوابه.. يزوم بما يعنى موافقته..

- جاوب.



- ما انا جاوبت.

- دي مش إجابة محب أو عاشق، وحتى تصرفاتك كلها عبارة عن.......

قاطعها بعصبية:

- عايزة تسمعي إيه تاني بعد موافقتي على الجواز منك؟ ده فصل الختام في كل حكاية غرام زي ما قلتي.. اسمعيني كويس أنا عليا ضغوط كثيرة، ومش عاوز أخسر علاقتي بربي وكفايا اللي فاتني في دنيتي، تتنقبي ونتجوز ونسافر صنعاء وكفاية اوي إني ساكت على بلاوي تانية..

- في دهشة بالغة ردت مريم:

- أتنقب!! ونسافر صنعاء؟؟

رددتها مرتين كمن لا يصدق ما يسمع.. ثم أفلتت منها ضحكة ساخرة كانت مكبوتة، رمقته بنظرات حائرة و تكرر في دهشة وبصوت خفيض:





- ساكت على بلاوي!!

لم يرد وظل يزفر في ضيق وهو يتطلع لسقف الحجرة وساد صمت ثقيل، ثم بدأت نذر العاصفة تلوح في الأفق قريبًا، فأردفت بجدية:

- ليه عاوزني أتنقب؟ وليه طلبت مني اجيلك النهاردة متحجبة؟ مش الأقباط دول اخواتنا ولا نسيت كلامك الأولاني؟

قالتها وهي متنمرة تنتظر الإجابة في تحد.

قال عبد الوهاب في سخط:

- مالهم الأقباط ومالنا؟ ربنا تاب عليكم وانتم دلوقتي عيلة مسلمة، أما النقاب فده أقل ما يمكن أن يمسح خطيئتك معي..

أجابته في تحد:

- وانت مغلطتش؟ ولا انا كنت بغلط لوحدي؟

- ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، وأنا نيتي كانت الجواز منك ومازلت،



والله غفور رحيم.

- غفور.. رحيم.. ليك وحدك؟! وأنا؟ ضحية وحيدة لشيطانك؟ أو انا مش كنت برفض اتعرى ادامك كل مرة؟ دلوقتي بقيت أنا الجاني وانت الجلاد؟

أشاح بوجهه وهو يلوح بيده غير عابئ بحديثها:

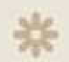
- قلت لك اتنقبي لتمسحي خطاياك..

- عايز تمسح خطاياي بخطيئة؟ تدفني في النقاب علشان تحس برجولتك؟ أتنقب علشان اعيش في الضلمة، في السر، نسيت كلامك ان الحياة لا تحتمل عندما نمارسها كعادة، وانها تتحول جحيما عندما تصبح العادة سرية.. انت إيه اللي حصلك وفاكر نفسك مين علشان تتحكم فيا كده؟

رفع رأسه ببطء قائلا في تحد:

- على الأقل أنا أحسن من أبوكي، أنا عرفت واتاكدت انه بيقدم المسكرات والعياذ بالله فى





خمارة حقيرة، ومش بيشتغل في إدارة مالية بشركة الفنادق زي ما بيكذب عليكم هذا الأفاق الكذوب وكفاية أوي إني حاقبل الزواج منك وانتي بنت ساقي في بار.. وحسبي أنكم الآن مسلمون، اسمعيني كويس أنا استخرت الله النقاب أو الحل علشان اغفر لك ذنوبك ومحدش يعرف انك بنت البارمان الكافر ده..

- أنا قبطية يا مولانا...

قالتها بسخرية مريرة بعد أن نزعت طرحتها عن رأسها ونهضت ولكنها فجأة ترنحت كعامود على وشك السقوط، وقلبها يكاد يقطر دماا على حبيب خان العهد.. لم يستوعبْ عقلها ما قاله عن أبيها فشعرت أنها تدور في فقاعة كبيرة من الوهم لا تجد لها منها مخرجاا، فراح فكها يميل ناحية اليسار متدليا مرتعشاا وهي ترجف ثم اتسعت حدقتا عينيها محلقة في عبد الوهاب الذي كان لا





يزال مسترسلا في الحديث عن مهنة أبيها، وهو يريها هاتفه المحمول الذي يخزن على ذاكرته صورا لستيڤي بالحانة التقطها أصدقاء

عبد الوهاب ممن يزاملونه الدروس الدينية بتعليمات من شيخهم عبد الموجود الذي وضع له خطة اللقاء وأمره باستخدام ورقة مهنة أبيها للضغط عليها كي تتنقب..

صاح عبد الوهاب بعصبية:

- **شوفي واتأكدي بنفسك.**

ثم انتبه فجأة لكلمة قبطية، وكأنه تلقاها على مسامعه في التو واللحظة فشعر بأنها قد دقت رأسه فشطرته نصفين متساويين تماما، فارتج من داخله وهو يردد ببطء وصعوبة:

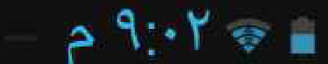
- **نصرانية؟! انتي نصرانية؟!!**

لم ترد، انقلب وجهها باكيا حزينا تسيطرعليه الفجيعة وتبسط سيطرتها على كل بقعة فيه..

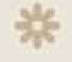
بدأ عبد الوهاب ينكمش فى مقعده وهو







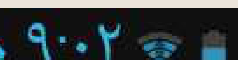
يتفصد عرقا باردا غزيراا، وهي تصوب ناحيته سهام نظراتها النارية و جسدها لا يتوقف عن الارتجاف. غطت سحب الغضب عينيها فلم تعد ترى منه ما يجعلها تتراجع أفلت زمام أعصابها في لحظات وشعرت بالدم يغلي في رأسها، وانحدر عبد الوهاب من عينيها الجاحظتين مع دموع الندم وتبخر فارسها مع أحلام الهجرة وأوهام الغرام.. لم تدر بنفسها إلا وهي تقذفه في عنف بمطفأة ثقيلة من الكريستال طالما وبخه والداه وهو صغير على العبث بها حتى لا يكسرها، فأصابت أم رأسه وكأنها تدك عقله الذي تجمد لتقتل بنات أفكاره المتزمتة، سقط أمامها مضرجاا في دمائه ووجهه الطفولي متأزم منقبض وسرعان ما ظهرت بركة صغيرة من الدماء أسفل رأسه، برقت عيناها وأفلتت منها ضحكة مبتورة، وفكها لايزال يتدلى منحرفا، زاغت عيناها



قليلا وهي تقترب من وجهه غمست كفيها في دمائه الساخنة المتدفقة بغزارة وتأملتهما، وضحكاتها تعلو في هيستيرية ثم هرولت مغادِرة على غير هدى كمن يفر من أشباح لا يراها أحد غيره، وراحت ترسم صليبا بدمائه على الجدران وأبواب الحوانيت، حتى جفت دماؤه فكان صليبها الأخير في الفضاء وهي تصرخ من أعماقها، ثم جثمت على ركبتيها وهي تطلق نواحا مكتوما إلى أن سقطت بلا حراك، اكتفى المارة بمشاهدتها وعلق بعضهم ساخرا وضرب البعض الآخر كفا بآخر ثم مضى لحال سبيله، بينما الأغلبية تتابع في صمت، وكأن الأمر لا يعنيها أو كأنها فقرة عابرة يواصلون بعدها برنامج حياتهم ولا يدرون أن كثيرين منهم قد حان دورهم ولكنهم لا يدركون.

*****

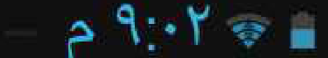
سبقهما ستيڤ إلى باب شقته وهو يجر



قدميه جرا، ثم وقف أمامه يصعد بعينيه الدَّرَج المؤدي للسطح ولم يبرح مكانه..لمح ابنه شهاب مقبلا عليه فأشار له أن يطعم الطيور قبل أن يتوجهوا للمحكمة، غاب الصبي قليلا ثم خرج بكيس ممتلئ وقفز درجات السلم قفزا، ما إن عبر بوابة السطح حتى تسمر في مكانه للحظات ثم تراجع إلى الوراء خطوتين وعيناه تتسعان خوفا مما يراه..
كانت الديوك الثلاثة قد مزقت أسلاك أقفاصها وراحت ترتع في المكان، طيور الحمام مسجاة بلا حراك وثقوب في جسدها من مناقير الديكة.. وطارت البقية حتى صارت العشة خاوية على عروشها..ألقى الصبي بكيس الطعام بعيدا بعد ما لاحظ اقتراب الديكة منه في جرأة.. فانصرفوا عنه منشغلين بالطعام، استجمع قواه حتى يهدأ قلبه من شدة الخفقان.. سمع صوت أمه تناديه فأخرج

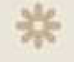






صوتًا مبحوحًا ضعيفًا لا يُسمع، فكررت نداءَها بنبرتها العصبية فتحركت قدماه بأمر من عقله المضطرب نزولا على الدرج، التقت عيناه بعيني والده الذي استفسر منه في صمت عما إذا كان قد أطعم طيوره، فأومأ شهاب بالإيجاب ثم أمسك بيد أمه والتصق بها ولم ينطق بأي كلمة طوال الطريق إلى المحكمة.

تموَّج البشر بدهاليز سراي محكمة باب الخلق كبحر هادر، أمواجه عاتية تتأرجح منها القوارب الصغيرة حتى تكاد تغرق، يختلط الحابل بالنابل في أروقة محراب عدالة عفا عليه الزمن وأكل الدهرعليه وشرب فصار أطلالا كئيبة لا تبث طمأنينة ولا تشي بعدل قريب.. باعة جائلون وبائعو تمغات ورجال متنطعون تجاوزوا الأربعين جلبوا من مقهى قريب ليكونوا شهودا في قضايا لم ير أيٌّ منهم أحداثها، ولكنهم لايستحيون أبدا أن



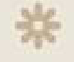
وحرمها من أطفالها.. متهمون في ملابس بيضاء يمضون في صفين متراصين يربط بينهما قيد حديدي يعلوه الصدأ، محلقة رؤوسهم مطرقين في خجل وأحيانا في ندم، يدلفون من باب خلفي مترجلين من سيارة ضخمة ذات ثقوب صغيرة على جانبيها أسموها نوافذ، يكاد المرء منها يطل على الدنيا من ثقب إبرة وكأنه يُعاقَب مرتين..

ردد الحاجب بصوته الجهوري المميز العبارة الشهيرة:

- **محكمة..**

طرق القاضي المنصة طرقتين بمطرقته الخشبية بعد أن لاحظ بعض الضوضاء بالقرب من قفص الاتهام، ثم التفت للحاجب طالبا منه نداء المتهمين.. كانت فدوى تروح وتجيء خلف أسلاك القفص ذي الفتحات الضيقة كلبؤة جائعة وقد أهوش شعرها وباتت نظراتها تائهة تطل من عينين فزعتين





محدقة في الجالسين بالقاعة، تبحث في شغف عن سعيد النحال الذي توارى خلف محاميه محاولا أن يبدو متماسكا مختبئا وراء ابتسامة صفراء باهتة لم تغادر شفتيه منذ دخوله القاعة.. جلس أمامه مباشرة المحامي وحيد حلمي بـصحبة مساعديه وعشرات الأوراق والملفات قد تراصت أمامهم في نظام انتظارا لدوره في الدفاع عن الوزير السابق كامل أبو الأسرار الذي سمح له نفوذه القديم بإدخال مقعد خشبي إلى القفص ليستريح أثناء محاكمته!!

.. على عكس فدوى وتوترها، ظهرت مريم هادئة تستند بظهرها إلى الحائط خلف القضبان شاردة في وجوم، تطل من عينيها نظرة جامدة للسقف وكأنها تسبح في ملكوت آخر على مهل، تعلقت عينا ستيڤي القابع في سكون منتصف القاعة بها، وكأنه يقول لها



لست وحدك..أنا أحميك من نظرات الفضول المتسائلة عن تهمة تلك الفتاة الجميلة الحالمة، التي بدت بسكونها كوجه حزين في لوحة عتيقة أهملت على مدار الزمن.. على بعد خطوات قريبة من مريم وقف مدحت المعداوي بملابس بيضاء فاخرة نظيفة مهندمة ممسكا بالقضبان، ينقل بصره كبندول ساعة بين محاميه وقاضيه وكأنه يحاول تلمُّس مصيره المجهول..

كان ستيڤي قد تخلى عن باروكته وعدساته اللاصقة وعاد إلى طبيعته فبدا كهلا، كأنه شاخ عشرات السنين في الأسابيع القليلة الماضية بعد القبض على ابنته مريم بتهمة الشروع في قتل عبد الوهاب الذي نجا من الموت بأعجوبة وجلس مع أبيه في نهاية القاعة مطالبًا بتعويض مدني عما أصابه من أضرار، ورأسه لا يزال ملفوفًا بقماش أبيض ناصع نظيف فبدا وكأنه ىعلن عن عقل بداخله





لم يستخدم بعد.!
على مقربة من مقعد الوزير السابق داخل القفص قبع صابر على الأرض، مرتكنا بظهره على أسلاك القفص، وكأنه قد خاصم الحضور جميعاا ولم يعد يرغب في رؤية أحد، فدفن رأسه بين ذراعيه منكفئا ودموعه تغلبه كلما قاومها بعد أن تورط باعترافه بضرب زينة حتى الموت، فجاء تقرير الطبيب الشرعي وتحريات ضابط المباحث الذي دفعه إلى هذا المنزلق يؤكدان أنه تعمد قتلها بقصد سرقتها، قدمته النيابة محبوساا بالتهمتين فقبع كفأر مشلول في انتظار قصاص من إثم لم يرتكبه..
الوحيد الذي بدا متماسكا نوعاا ما أو ضياء العجمي الذي وشى به ستيڤي يوم الانتخابات خوفا من فوزه فقُبِضَ عليه بتهمة تزوير فواتير الأغذية والمشروبات وتلاعبه في حسابات الفندق، كان يبدو واثقا من

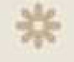






براءته بعد أن لمس تعاطفاا من الإدارة معه بعد سجنه، فوقف متراخياا في لا مبالاة، عاقدا ذراعيه أسفل صدره يبحث عن ستيڤي بعينين تطل منهما رغبة مكبوتة في انتقام مؤجل، ظل يبحث عنه مثله مثل الباقين ولا يتعرف عليه بسهولة، فجميعهم لم يروه من قبل بمظهره الحقيقي، لم يعرفوه إلا ساقياا نشيطًا ناضراا، وعندما وقع بصرهم عليه اليوم كادوا يتشككون في أنفسهم، باتوا أشبه بمن يقف في منطقة جرداء بلا حياة.. أرض بور قاحلة.. تفصل بين الواقع والخيال فاختلطت عليهم الحقيقة بالوهم الذي عاشوه لسنوات طويلة في نشوة زائفة ولا يزالون يترنحون..

لم ينبس ستيڤي ببنت شفة، بدا كالشاهد الصامت، فهو القاضي الحقيقي الذي رأى عوراتهم، هو صندوقهم الأسود الذي يحتفظ بتفاصيل خطاياهم أو الشيطان الأخرس الذى



طالما سكت عن الحق، حتى أخرسته فجيعته في ابنته للأبد.

استمعت المحكمة للشهود في قضية فدوى.. موظفو العلاقات العامة الذين شهدوا ضدها بأنهم رأوها تهرول وراء سعيد وتستميحه عذرًا أن يغفر لها دون أن يعلموا جرمها الحقيقي، وموظف شركة الاتصالات الذي قدم تفريغا برسائلها المرسلة إلى سعيد النحال من هاتفه، وكلها تقر فيها بأنها المخطئة وتطلب منه العفو عنها وسوف تصلح ما فسد دون أن تفسره، ففسر ضدها..

- نادي على المجني عليه...

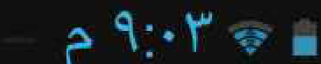
قالها القاضي وهو ينظر للحاجب الذي انتفض واقفا وقد علا صوته:

- سعيد محمد النحال...

تقدم سعيد وأقسم على ألا يقول إلا الحق.. ثم استرسل في سرد أكاذيبه شارحا ما





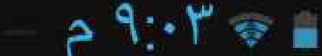


يحفظه عن ظهر قلب وخطط له مسبقا بدقة، فشرح كيف أنه منذ عام مضى افتتح حسابا باسمه وآخر باسم زوجته بالبنك الذي تعمل فيه فدوى عبد السلام، التي أبدت تفانيا في العمل جعله يثق فيها ويرتاح للتعامل معها إلى أن اطمأن إليها، ثم فوجئ منذ أسابيع بسحب رصيده ورصيد حساب زوجته بالكامل بموجب شيكات بنكية، وتفويض مزورين بتوقيع منسوب له..

كانت فدوى تتابع شهادته والذهول يقطر من عينيها وقلبها يكاد يدمى، حاولت الحديث ومقاطعته فخانها صوتها ولم يخرج.. شعرت بأنها تنهار ببطء وكأن كلماته تنهش جسدها قطعة تلو الأخرى.. أزاح القاضي نظارته الطبية الذهبية وقلب أوراق تقرير خبير الخطوط أمامه، فوجد أنه قد انتهى إلى نتيجة مؤداها أن جميع التوقيعات المنسوبة لسعيد النحال، مقلدة بطريقة متقنة للغاية







يستحيل على الشخص العادي اكتشافها..
تدخل المحامي وحيد حلمي طالباا الكلمة فلما أذن له القاضي قرر أنه بصفته محاميًا عن البنك الذي تعمل به فدوى قد تصالح مع العميل سعيد النحال حرصا على السمعة التجارية للبنك، وسددوا له نصف المبالغ التي اختلستها فدوى بالشيكات والتفويض المزورين والباقي اتفقوا على جدولته معه..
أومأ سعيد بالإيجاب مؤكدا صحة حديث المحامي.. قلب القاضي في الأوراق ثم سأل وحيد:

- وهل أعادت المتهمة الأموال المختلسة من البنك؟

أجابه وحيد بالنفي وهو يهز رأسه أسفا وكأن ماله الخاص أو الذي فُقِد..

- عندك أقوال أخرى؟

- لا..




قالها سعيد للقاضي وهو يتقدم ناحية سكرتير الجلسة الملاصق للقفص ليوقع على أقواله بيده اليمنى وما إ: فرغ حتى صرخت فدوى:

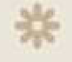
- سعيد أشول والله العظيم أشول..

ارتبك سعيد للحظات وتعلقت عيناه بالقاضي الذي انتبه لصراخ فدوى، فسأله وهو يقلب في التقرير مرة أخرى عما إذا كان يستخدم يده اليسرى أيضا.. تمهل سعيد لبرهة ثم رد مستعيداا بروده:

- لا يا فندم وخبير الخطوط سألني نفس السؤال وجربت قدامه ومعرفتش..

وقع بصر القاضي على فقرة بالتقرير يؤكد فيها الخبير أن سعيد لا يجيد استخدام اليد اليسرى ولا يستطيع الكتابة بها بصورة منتظمة وذلك بعد فحص أوراق وتوقيعات محررة في ظروف طبيعية خلال عام مضى،

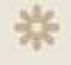




وبجوارها محاولات لسعيد للكتابة بيسراه فبدت كخطوط طفل يتعلم الكتابة في بداياته.. حروف كبيرة وكلمات متعرجة ونقاط مفقودة..

ظلت عينا فدوى متعلقة بسعيد وهو يغادر القاعة في هدوء وكأن روحها تفارق جسدها للأبد ببطء، فتتذوق الموت مرًّا مؤلما، خرج سعيد وهو يسرع الخطى من باب المحكمة، تلفت قليلا ثم عبر نهر الطريق إلى الجانب الآخر ليستقر في المقعد الأمامي بجوار شريكته عزة الجارحي رئيسة الإدارة البنكية لتنطلق بهما سيارتها كالسهم بعد أن كانت قد سبقته بشهادة أمام النيابة من أسابيع مضت، لا تسمن

ولا تغني من جوع مقررة أنها لا تتذكر أي تفاصيل عن الموضوع: **هذا العميل من اختصاص فدوى وهي التي قدمت التفويض وسحبت الأموال من حساباته وهى التى**





طرق القاضي طرقتين ليستعيد الهدوء، ثم راح يستمع لمرافعة وحيد حلمي مدافعاا عن الوزير السابق في قضية من قضايا الفساد التي تمرس فيها، بعد دقائق من بدء مرافعته التقط وحيد ترددا في عين القاضي وتوترا لدى عضو اليسار، وتركيزاا وانتباها من عضو اليمين فلعب على تلك الأوتار ببراعة، حتى كاد الحاضرون يسمعون أنشودة البراءة وهي تعزف.. لاحظ وحيد انفعالاتهم المكتومة مع أجزاء مرافعته وتَغَيُّرَ ملامحهم كلما قدم ورقة أو استشهد بدليل، فظل يتنقل بينهم ببراعة كالفراشة وهو يصول ويجول عن طبيعة العمل بالوزارة التي تولى الوزير أمر قيادتها، وكيف خرج بها من عنق الزجاجة ورسم سياستها العامة لتتماشى مع سياسة الدولة، شارحاا الفارق بين المركزية البغيضة واللامركزية الرشيدة التي اتبعها كامل





أبوالأسرار فترك لمعاونيه الحرية في اتخاذ القرارات ولم يغفل الرقابة والتوجيه والمحاسبة، ثم اندمج وحيد أكثر فبدا كممثل قدير يبدع على خشبة مسرح وهو يقول:

- من الظلم يا حضرات أن نحاسب الوزير على أخطاء مرؤوسيه.. أو يتابع نعم.. كان يحاسب؟ طبعا وبحسم وحزم وشدة.. ولكن الوزير مش مغسل وضامن جنة يا سيادة الريس.. ولما الفساد استفحل في الوزارة من وكلائها وموظفيها الكبار ولم يقو على محاسبتهم لأنهم قطط سمان، قرر الوزير أن يحاسب نفسه قبل ما أي حد يحاسبه فقدم استقالته..

سرت همهمة في القاعة واندفع بعض المصورين نحو القفص لالتقاط صور فوتوغرافية للوزير الذي كان قلقا.. شرب وحيد جرعة ماء ثم استرسل بصوت جهوري:

- نعم استقال من شهور طويلة، لكن فى بلدنا



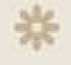
محدش بيستقيل لازم يقال، بس أنا باؤكد لحضراتكم إن أبو الأسرار استقال استقالة مسببة اعتراضا على الفساد.. في موضوع أموال التأمينات.

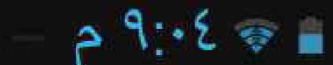
ثم بحركة مسرحية أخرج ورقة من ملف شفاف وقدمها للمحكمة في ثقة مصحوبة بابتسامة وزعها بالتساوي على المنصة، ثم تراجع خطوتين باسطاا ذراعيه وبنبرة عالية لا تخلو من سخرية واضحة:

- يعني لو كنا نعرف اننا حنتحاكم بعد ما استقلنا، كنا عملنا حسابنا وسلمنا الاستقالة لرئيس الوزراء على سركي علشان نضمن حقنا.. مش معقول يا سعادة البيه المجني عليه يبقى أو الجاني..

ضجت القاعة بالضحك وانفعل بعض أقارب الوزير فصفقوا على استحياء منبهرين بمرافعة وحيد حلمي، فطرق القاضي بمطرقته



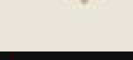




عدة مرات طالبا الهدوء مهددا بطرد من يتكلم من القاعة..

مضت الجلسة روتينية حتى جاء دور قضية مريم، سألها القاضي عن تهمتها فلم ترد، لكزها مدحت في ذراعها لينبهها إلى أن القاضي يخاطبها فظلت واجمة.. تقدم وحيد حلمي ليثبت حضوره معها مجاملة لستيقي.. ساد الصمت واشرأب ستيقي بعنقه، تعلقت الأبصار بوحيد الذي شمر عن أكمام روبه الأسود الأنيق ورسم على وجهه ملامح أسى عميق وحزن دفين أطل من عينيه فجأة ثم تحدث بنبرة هادئة خفيضة، لم يستطع كل من بالقاعة أن يسمعه بوضوح طالبا من المحكمة عرضها على مستشفى الأمراض النفسية:

- أعصابها تعبت يا حضرات المستشارين كفاية انها بقالها سنين طويلة عايشة وسطينا وهي مخبية ديانتها كأنها تهمة، والنيابة رفضت تحويلها للمستشفى أثناء التحقيقات



وقالوا انها عاقلة..أو فيه حد عاقل يعمل اللي هيه بتعمله؟ح حضرات المستشارين أنا مصمم على طلباتي بالكشف عن قواها العقلية قبل المرافعة.. وبعدها يقضي الله أمرا كان مفعولا، أشكركم..

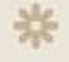
تداول القاضي مع زميليه في كلمات موجزة ثم أرخى نظارته قليلا موجها حديثه لوحيد حلمي في ضيق:

- يعني نعتبر إن دي طلباتك ومش عاوز تترافع؟..

ارتبك وحيد قليلا من لهجة القاضي المغلفة بما يوحي بأن وراءها حكمًا قاسيًا وقر في يقينهم، بعد قراءتهم لأوراق القضية وعلى وشك أن ينطق به ثم استعاد رابطة جأشه قائلا:

- نعم مصمم على طلبي بتحويلها لمستشفى الأمراض العقلية...





طوى القاضي الملف دون أن ينظر إليه قائلا بحسم:

- الحكم آخر الجلسة.. نادي على القضية اللي بعدها.

زاد توتر مدحت المعداوي وتفصَّد عرقه وتسمرت بعض حباته اللامعة على جبهته وهو يستمع لمرافعة هزيلة من محاميه بعد أن صمم الأخير على استدعاء داليا خليل للإدلاء بشهادتها ففاجأت مدحت بحضورها، ثم صدمته عندما قررت أمام القاضي أنها لا تعرفه معرفة وثيقة لدرجة تسمح لها بأن تكون معه في مكان وزمان ارتكاب الجريمة..

- معرفتي بيه سطحية جدا، مجرد شخص عادي بشوفه أحيانا في حانة ستيفي وسمعت من الناس إنه بيعمل عمليات إجهاض في عيادة الزمالك لكن يمكن تكون إشاعات...

بدت داليا واثقة من نفسها وهي تتلو أكاذيبها







أمام المحكمة، مكتفية بابتسامة غامضة لعدسات المصورين الذين لاحقوها على شهرتها البائسة من أعمالها الفنية الهابطة.. استغلت داليا الموقف لصالحها تماماً واكتسبت شهرة إضافية، وانقلبت من شاهد نفي حسبما سعى محامي مدحت إلى دليل إدانة جديد، استقر بجوار بلاغ محروس وتحريات الشرطة ليؤازرهما بشدة ويرجح كفة إدانته أكثر، فأطرق يأساً خلف القضبان مستسلماً لما يخبئه له القدر من مفاجأة فصل الختام..

عندما شرع القضاة في نظر قضية صابر، كان ينتفض ذعراً وخوفا وهو يكتم دموعه فلم ينطق سوى بكلمات قليلة..

- والله العظيم أنا مظلوم.. لا قتلت ولا سرقت.

بعدها ترافع عنه محاميان صغار السن والخبرة فلم يجدا ثغرة ينفذان منها إلى





براءته أو حتى تخفيف العقوبة بعد اعترافه التفصيلي، فشككا في كل الأدلة بعشوائية وكأنهما يبعثران الأوراق كلها لتختلط على الجميع.. فلما بح صوتهما وخوت جعبتهما وخارت قواهما طوى القاضي الملف والتفت إلى يمينه ويساره متبادلا كلمات هامسة في مداولة سريعة، ثم طلب النداء على القضية الأخيرة وهو يزفر ضيقا من طول فترة امتداد الجلسة واكتظاظها بالقضايا..

لم تحظ قضية ضياء العجمي باهتمام كبير كسابقتها وكأنما القضاة والمحامين قد أصدروا فيها حكما مسبقا فاتفقوا جميعا ضمنيا على إنهائها على عجل خاصة بعد ما تقدم محامي الفندق بطلب يفيد تصالحهم مع ضياء ومرور فترة طويلة على آخر فاتورة تلاعب فيها لصالحه وعرضه رد قيمة ما اختلسه..







علا صوت الحاجب بعدها يهز جنبات القاعة هاتفا:

- رُفعت الجلسـة.

*****

غادر فؤاد فخري مكتب محاميه وهو يجر أذيال الخيبة بعد أن أخبره الأخير باستيلاء خاله على أطيان والدته المتبقية من ميراثها لأبيها، فأسقط في يده مرتين.. عندما طلب أتعابا ضخمة لم يعد يملك ربعها بعد أن صار مفلسا، والثانية لما علم منه أن القضية قد تقبع عشر سنوات قادمة في أروقة المحاكم حتى يصدر فيها حكم نهائي يعيد له أرضه المغتصبة.. زفر في ضيق وهو يردد هامسا:

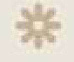
- المغتصب ينعم بالأرض وصاحبها يشقى وهو يراها تغتصب أمامه كل يوم.. عجبي.

طار أمله الأخير أمام عينيه وحلق مرتفعا حتى توارى عن الأنظار فلم يعد يرى سوى



غيوم الشتاء الحزين... وقعت عيناه على لافتة كبيرة مشدودة بلا اكتراث إلى شجرتين عجوزتين لفت نظره عبارتها المدونة بلون أحمر داكن وبخط منمق «**مبارك لمصر**».. أطلت نظرة يشوبها الملل من عينيه المنتفختين.. ظل يسير في شوارع الزمالك المزدحمة بالمارة وبينهم رجال أبي عيدة وتابعيه، ينتشرون كالجراد يأكلون الأخضر واليابس، ولافتات التهئنة التي قاموا بنشرها بالحي العريق بفوز أول رئيس منتخب لمصر تظللهم جميعا وهم يرتعون تحتها حتى قادته قدماه نحو البار، فهبط الدرج وجسده السمين يترجرج مع كل خطوة لأسفل؛ فبدا أشبه بفيل أدرك نهايته فراح يخطو خطواته الأخيرة نحو مقبرته المختارة ينتظر مماته.. لم يكن ستيڤي موجودا فقد صار يتغيب كثيرا عن الحانة منذ القبض على مريم ومحاكمتها فبات ظهوره نادرا ولدقائق معدودات.. اختار كرسيا



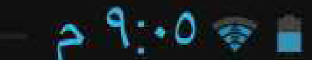


على البار الرئيس وطلب من النادل منتصر مشروبا كحوليا خفيفا فهز الأخير رأسه دون أن يبادله التحية أو يرحب بقدومه؛ فقد كان يؤدي عمله بديلا لستيڤي بعجرفة لا مبرر لها رغم أنه كان ينتظر قدوم هذا اليوم منذ فترة طويلة.. التفت فؤاد عن يساره فلمح العقيد حسين عناني شاردا يحتسي زجاجة من البيرة المحلية ويغمض عينيه بشدة كلما تجرع منها، وكأنها الدواء لداء الاكتئاب الذي تمكن منه حتى غلبه بعد إحالته إلى المعاش المبكر، وتخلي شادي عنه بعد أن تعرف مؤخرا على مدير مكتب وزير الداخلية فصار رفيقه ونديم خمره والجني الذي يلبي له أحلامه قبل أن تنطقها شفتاه على شكل رغبات..!

صار العقيد حسين عناني أشبه بموديلات الملابس القديمة التي تتخلى عنها المحلات



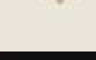




بتخفيضات خيالية وبخسارة في أحيان كثيرة بعد أن باتت عبئا على أصحابها ولا يريدها أحد من زبائنهم.. حياه فؤاد بإيماءة بسيطة من رأسه لعله يتعرف عليه ويتجاذب معه أطراف حديث مفتقد بعد أن اعتصرته الوحدة مؤخرا.. فلم يعره العناني اهتماما وكأنه والعدم سواء، لم يره رغم بدانته وصخبه في رفع كأسه وطرقه على طاولة البار؛ فبديا وكأن بينهما جدارًا عازلًا سميكًا من الصمت والتجاهل..

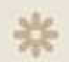
أفاق من شروده على صوت شادي وهو يمرق بين طاولات البار في طريقه إلى مكانه محييا النادل منتصر بنبرة صاخبة مدللا إياه كعادته.. **مونتي**... حياه منتصر ملوحا بكفه وبابتسامة واسعة تكاد تصل لأذنيه من فرط كبرها تنم عن سخاء زبونه وأهميته.. كانت داليا خليل تتأبط ذراع شادي وترتدي فستانا يكشف عن ثدييها السخيين فى وقاحة، وهى





تتعثر في مشيتها محاولة اللحاق بخطواته الواسعة بسبب كعب حذائها المرتفع كالمعتاد، وهو يهمس في أذنيها بعبارات وقحة تجعلها تطلق ضحكات ماجنة تثير الجالسين وتلفت انتباههم... كان شادي في الأسابيع الأخيرة قد اعتاد الظهور بصحبتها بعد أن مل من دميته الأخيرة الراقصة زيزي التي صارت حركاتها وكلامها مكررين فأصابه السأم فلفظها، وواتته الفرصة للتعرف إلى داليا عندما أغراها بإنتاج فيلم لها تلعب فيه بطولة تفتقدها وتتوق إليها، فأتت صاغرة ودانت له حتى حان قطافها.

في مكانه الذي لم يتغير منذ سنوات جلس رأفت الموردي يعبث بمكعبات الثلج في كأسه يحركها بأصابعه يمينًا ويسارًا ببطء فتحدث دوائر عميقة ثم تطفو مرة أخرى بهدوء، وهو يتأملها ساكنا بعين حزينة



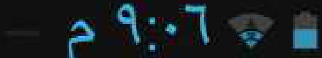


واجمة، يلفه الصمت بطبقة سميكة، ويغلبه الشجن بضراوة ويقهره الحنين بلا هوادة بعد أن غاب عنه رفيقه الوحيد ونديم خمره الأثير نبيل الألفي، ورحل فجأة بلا استئذان عن دنياه منذ أسابيع...انتابته الهواجس وسرح مع خواطره وهمومه..فالمرء لا يعيش مرتين، والعمر يُسرق، والكرامة تُنزف، والعدل على وشك أن يدفن حيا، وهو يئن من جراحه ومخزون الصبر نفد أو كاد، لم يتبق إلا القليل.. الأجراس تدق ولكن في صمت لا أحد ينتبه وربما لا يريد، الكل يترقب وينتظر، لا يساعدون أنفسهم أبدا وكأنهم ارتضوا جميعا بأن تكون حياتهم موتًا مؤجلًا..

انخفض مستوى الإضاءة ودارت الموسيقى كالمعتاد، ولكن شيئًا ما تغير... الوجوه لم تختلف وإنما النفوس تقلبت وأضمرت بداخلها يأسا وضيقا وناءت الأكتاف بحمولها، كل منهم يحمل أسراره الصغيرة فى رأسه الذى







بات لا يكف عن التفكير والشرود، ولم تعد نشوة الخمر مهما بلغت حدتها تلهي عن الدنيا وهمومها ولم يعد النسيان بعيدًا عن الذاكرة كما كان..وكأن أروقة الحانة وجنباتها على وشك أن تنطق.. **متى تفيقون**..؟!

*****

الوجوه قلقة..والنبرات عصبية..النظرات زائغة تبحث عن أمل ضائع.. اليوم غير كل يوم من أيام المحاكمة، استقر الجميع في أماكنهم حتى اكتظت بهم قاعة المحكمة..ربت النادل موفق على ساق ستيڤي مواسيًا ومال لمعي ناحية رأسه هامسًا:

- **إن شاء الله خير يا ريس..**

ثم أردف محاولا إخراجه من مزاجه المتجهم:

- **انتخابات الغرفة السياحية نتيجتها اليوم وإن شاء الله نبارك وتبقى الفرحة فرحتين..**

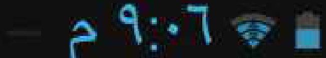




لم يرد ستيڤي وظل ساكنًا شاردًا مصوبا بصره نحو مريم الواقفة كتمثال شمع بالقفص، وكأنه يحاول وصل خيط وهمي يربط بينهما ولكنها تعرض عنه ولا تنظر إليه أبدًا، تحجرت الدموع في مقلتيه وأبت أن تنحدر، في حين ظلت مريم سابحة في ملكوتها وكأنها انفصلت تمامًا عن المشهد..

مرت الدقائق بطيئة كسنوات في انتظار دخول القضاة القاعة لنطق الأحكام..والقابعون داخل القفص يتذكرون ماضيهم ويتأملون شريط حياتهم الذي يمر أمام أعينهم في سرعة..كقطار يعوض ما فاته.. الانكسار يطل من وجوههم، وبارقة أمل بعيدة تتوارى خلفه تتعلق كالغرقى بآمال تنزلق على لسان محاميهم الواقفين بجوارهم والذين راحوا يشدون من أزرهم ويطمئنونهم، حتى ظهر الحاجب وهو يهندم من سترته الصفراء





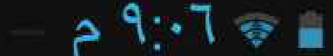
الباهتة المتسخة صائحا:

- محكمة..

تعلقت الأبصار بشفتي القاضي الوقور الجالس في المنتصف وأرهفت الآذان، احتُبست أنفاس الجميع من شدة الرهبة وساد صمت الترقب حتى خيم على القاعة كلها ولم يعد يسمع إلا دقات قلوب تكاد تمزق ضلوع أصحابها قلقا.... وسرعان ما سقطت فدوى مغشيا عليها وهي تطلق صرخة مكتومة أشبه بصيحة البجعة الأخيرة فور النطق بسجنها عشر سنوات.. وسالت دماء غزيرة من كف مدحت عندما ضرب بقبضته قضبان القفص بشدة وهو يسمع الحكم بحبسه لسنوات خمس قادمة لتسببه في موت هاجر أثناء إجهاضها... في حين راح ضياء يسجد شاكرا متذكرًا ربه بعد أن نسيه لسنوات لما نطق القاضي بعبارة وقف تنفيذ العقوبة، أما صابر فقد غرق فى ذهوله الذى لم يفارقه منذ







ضبطه وكأنه ظله وقت الظهيرة بعد أن جف حلقه فخرج بكاؤه أخرسَ وكلمات القاضي تتردد في أذنيه كصدى صوت.. **إحالة أوراقه لفضيلة المفتي**..

دوت في القاعة زغاريد غير متقنة وعلت أصوات فرحة عارمة لفتت الأنظار من الجانب الأيسر منها عندما نطق القاضي حكما ببراءة الوزير كامل أبوالأسرار الذى أشار بيده لأنصاره وعائلته بعلامة النصر من خلف القضبان.. صمت القاضي برهة ليلتقط أنفاسه ويواري توتره ثم نطق بالقرارالأخير بإيداع مريم مستشفى الأمراض النفسية خمسة وأربعين يوما لبيان مدى سلامة قواها العقلية..!!

غادر القضاة بعدها.. مطمئنين إلى أنهم حكموا بالعدل وساد القاعة هرج ومرج والتف الكثيرون حول القفص، تداخلت عبارات





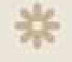
التهنئة مع كلمات المواساة والصبر، امتزجت الدموع بالضحكات.. حُملت فدوى كشاة ذبيحة وهي فاقدة للوعي، بينما صابر يتكئ على اثنين من حراسه وهو يجر ساقيه جرًّا بعد أن خذلتاه في حمل جسده..

ظل ضياء يلوّح لأقاربه فرحا، ويبحث عن ستيڤي مرة أخرى في تشفٍّ واضح يطل من عينيه، بينما الوزير السابق يتحدث للصحفيين عن نزاهة القضاء المصري وشموخه وثقته فيه التي لم تَفْتُر يوما:

- كنت واثقا من براءتي يا حضرات فلدينا قضاء نزيه شامخ.. في حين راح مدحت يداري وجهه خلف صحيفة قديمة ليتفادى عدسات المصورين التي راحت تلاحقه في سعار..

الجميع يغادر القاعة تباعًا والأصوات المختلطة تُحدث ضوضاء لا يسمع منها إلا جلبة.. يظهر فجأة شاب مفتول العضلات





يشق الصفوف.. لم يكن إلا النادل منتصر الذي اخترق جموع المغادرين حتى وصل لمنتصف القاعة مهنئا ستيڤي بفوزه في انتخابات الغرفة..

- **مبروك يا ريس...**

يلتف حوله النادلان لمعي وموفق ويقترب أبوعدنان على استحياء مواسيًا منيرة المتجهمة، وهي تلوي شفتيها في امتعاض وبصحبتها ابنها الصغير شهاب، الذي غاص في حضنها خوفًا وحزنًا..

ظلت نظرات ستيڤي شاردة وهي تطل من وجهه المحنط بعد أن هربت منه الدماء، كانت عيناه جامدتين تنظران إلى لا شيء.. بدا ذاهلا لا يشعر بمن حوله وهم يواسونه ويحاولون التخفيف من آلامه..دميت عيناه وبكى بعضه على بعضه معًا.. حاولوا معاونته على النهوض فلم يستجب، تيبس في مقعده







فأجبرهم جموده على التسمُّر في أماكنهم..
شق صوت مريم الصمت، وهي ترتل ترانيم من بعيد بصوت ملائكي لا يخلو من شجن، فتحولت العيون نحوها وهي تغادر قفصها إلى سجنها، بدت هائمة يكسو الارتياح ملامحها وكأنها محلقة فوق السحاب..
متحررة من قيودها، تنظر إلى الجميع من علٍ بلا مبالاة؛ فالدنيا في عينيها لم تعد تستحق كل هذا العناء.. بينما ظل ستيڤي متجمدًا فى مكانه حتى خلت القاعة كلها دونه، وهو على حاله لا يحرك ساكنًا أبدًا، فقط ظل مائلًا برأسه إلى الأمام قليلًا، فبدا كبناية عتيقة آيلة للسقوط ولكنها تعاند الزمن.

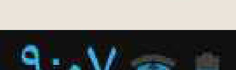
«تمت»

أشرف العشماوي

القاهرة في 3/11/2013









عصير الكتب
Facebook.com/groups/Book.juice